التناسب السياقيُ للآياتِ القرآنيةِ المعترضةِ بينَ الموضوعِ الواحدِ - دراسة لنماذج مختارةٍ -

أ. محمود فايز بطاينة* د. محمد رضا حسن الحوري**

تاريخ وصول البحث: ٢٠١٧/١/١٦م تاريخ قبول البحث: ٢٠١٧/٥/٢م

ملخص

يتناول هذا البحث دراسة نماذج مختارة من الآيات التي جاءت معترضة بين موضوع قرآني واحد؛ يوهم وقوعها في مكانها إشكالاً في اتصالها بما قبلها وبما بعدها، في محاولة للكشف عن أوجه المناسبة بين الموضوع المعترض وما أعترض فيه، ومناقشة حقيقة هذا الانقطاع الظاهري من خلال النظر في مناسبة ذلك مع عناصر السياق، وقد قمنا باختيار عدد من المواضع اختيارا انتقائيا؛ تأكيدا لتوافر هذه الظاهرة في النص القرآني توافراً لافتاً دافعاً إلى دراسة هذا الموضوع بشكل استقرائي شامل لكل المواضع في دراسة موسّعة.

Abstract

The current study selected models of verses that came parenthetical between one Quranic theme that provokes uncertainty in its location after being linked to what is before and after it. This study is an attempt to identify the suitability between the parenthetical theme and the reason of it, and to discuss the reality of this apparent disconnection by examining the suitability of such a procedure by linking it with the context elements. The study selected some themes that clarify this issue based on purposeful selection to assure the availability of such phenomenon in the Quranic verses to a degree that dictates its study deductively and comprehensively for all included themes in an integrates way.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، وعلى آله وصحبه والتابعين وبعد،

فقد أنزل الله هذا القرآن على هيئة مخصوصة من ناحية ترتيب آياته وموضوعاته، على خلاف معهود مؤلفات البشر، من حيث ترتيب المطالب، وهذا الترتيب يعتبر وجها من أوجه الإعجاز لما يكتنفه من انسجام وتناسب بين الآية والآية، والموضوع والموضوع، وفق حركة السياق في السورة القرآنية، وَهَذَا الانسجام والتناسب هُوَ من أعظم أسرار هذا الكتاب المعجز، إذ تتجلى من ثناياه عظمة القرآن، ولذلك كان هذا السر المصون محطَّ أنظار الذواقة من العلماء، وأصحاب الحس المرهف من المفسرين، وصائدي اللطائف الحكمية من السالكين. وسيراً على نهج هؤلاء أردنا أن يكون لنا سهم في جانب من جوانب هذا العلم رفيعِ المكانة. ورغم أن هذا التناسب يطغى على محتوى سور القرآن كافة، إلا أن بعض المواضع التي تتضمن آية أو أكثر أتت في موقعها من القرآن، مما لا يبدو فيها وجه التناسب ظاهرا، ويلوح فيها إشكال من جهةِ ارتباطها بسابقها ولاحقها، سيما في حال أن يكون السابق واللاحق يشكلان موضوعا واحدا اعترضته آية أو أكثر، بحيث غدا الأمر

* باحث.

** أستاذ مشارك، قسم أصول الدين، كلية الشريعة، جامعة اليرموك.

أشبه بالانقطاع بتوسط موضوع مستقل مباين له، وهذا هو جوهر هذا البحث، وقد وقع منا الاختيار على بعض المواضع التي اعترضت فيها آية أو أكثر في أثناء الموضوعات حيث سنبرز تلك المواضع القرآنية إلى دائرة الضوء، محاولين دراسة حقيقة التناسب بينها وبين الموضوع المُعْتَرَض فيه. راجين من الله العون والتوفيق.

أسباب اختيار الموضوع:

من أسباب اختيار دراسة الموضوع: أهمية علم التناسب في إبراز ظاهرة الإحكام المتوطنة في القرآن، وذلك بيانا وتجلية لجانب من جوانب الإعجاز القرآن، ولأن هذا الموضوع لم يحظ بدراسة متخصصة، ولأن هذا النسق الترتيبي يعتبر من مداخل المشككين الطاعنين بالوحدة الموضوعية للقرآن الكريم.

أهمية الدراسة ومشكلتها:

تظهر أهمية هذه الدراسة في إبراز ظاهرة الاعتراض في موضوعات القرآن بوصفها جزءاً من النظم القرآني بالتأكيد على الترابط الوثيق والتلاحم بين آيات القرآن وموضوعاته في السورة الواحدة.

وتتجلى مشكلة الدراسة في أن ثَمَّ انقطاعاً بين الآيات المعترضة وبين الموضوع القرآني محل اعتراضها من حيث الظاهر، واشتباه انتفاء تلاءُمها مع سياقها، مما يتناقض مع حقيقة أنها في موقعها –يقينا– جزءٌ من بنيان القرآن المحكم، ووجهٌ من أوجه إعجازه، ولا انفكاك لها عن سياقها، بوصفها جزءاً من النظم القرآني المعجز. وتحاول هذه الدراسة الإجابة عن سؤال رئيس هو: ما أوجه تناسب الآيات المعترضة في الموضوع القرآني الواحد للسياق الناظم لها؟

أهداف الدراسة:

١- تحديد المقصود بالآيات المعترضة في الموضوع القرآني الواحد.
٢- بيان التناسب السياقي بين الأمثلة المختارة في الدراسة وسياقاتها.
٣- بيان أن التناسب السياقي بين موضوعات القرآن يعد من أوجه إعجاز القرآن.
٤- الردُّ على الطاعنين من المستشرقين والملحدين في ادّعائهم اضطراب آيات القرآن وعدم انسجامها.

الدراسات السابقة:

بعد البحث –وفي حدود اطلاعنا– لم يفرد أحدٌ هذا الموضوع بدراسةٍ علميةٍ متخصصة، وقد قمنا بالاطلاع على عدة دراسات[1] اشتركت مع هذا البحث من جهة العنوان، إلا أنّ هذه الدراسات لم تتطرق إلى موضوع مناسبة الآيات المعترضة للسياق في الموضوع القرآني الواحد. وأتت تلك الدراسات على ضربين: أولهما: ركّزت على دراسة الجمل المعترضة بمفهومها النحوي، مُبْرِزَةً الجانب النحوي والبياني للجمل المعترضة، وثانيهما: تناولت موضوع المناسبات بوصفه علماً من علوم التفسير الخاصة، ومما تباينت بشأنه آراء العلماء، وغير ذلك من مباحث علم المناسبات. وعليه؛ فيظهر أن هذه الدراسات جميعا لم تتعرض لموضوع مناسبة الآيات المعترضة للسياق في الموضوع القرآني الواحد، الذي هو جوهر هذا البحث، وقُطْبُ رَحَاه.

محددات الدراسة:

تتمثل حدود الدراسة في اقتصارها على: الآية أو الآيات أو جزء الآية التي تُكَوِّنُ موضوعا مستقلا، وتقع معترضة

للسياق في موضوعٍ قرآنيٍّ وفي سورة قرآنية واحدة. وتم انتقاء المواضع الأقرب لشرط البحث، والأَشْهَر عن أهل هذا الفن، والأكثر اشتباها في دعوى انتفاء التلاؤم السياقي، إيذانا بأن التناسب فيما هو أبعد عن الانسجام يفضي إلى ثبوته فيما هو أدنى.

منهج الدراسة:

ستوظّف هذه الدراسةِ المنهجَ التحليلي الاستنباطي في الكشف عن وجوه المناسبات بين الآيات القرآنية المعترضة وبين السياق الذي جاءت فيها.

خطة البحث:

جاءت الدراسة في مقدمة ومبحثين وخاتمة.

المبحث الأول: في بيان مصطلحات الدراسة. وفيه مطالب:

المطلب الأول: السورة القرآنية وعناصرها.

المطلب الثاني: تعريف علم المناسبة.

المطلب الثالث: السياق القرآني، تعريفه وعناصره، وعلاقته بعلم المناسبة.

المطلب الرابع: المقصود بالآيات المعترضة للسياق في الموضوع القرآني الواحد ومباينتها للجملة المعترضة.

المبحث الثاني: نماذج من التناسب السياقي للآيات المعترضة بين الموضوع الواحد، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ...﴾[البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩].

المطلب الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ...﴾[الكهف: ٥٠].

المطلب الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ ...﴾[الروم: ٤٧].

المطلب الرابع: قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ ...﴾[فاطر: ١٠].

المطلب الخامس: قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ...﴾[القيامة: ١٦-١٩].

الخاتمة.

المبحث الأول
بيان مصطلحات البحث

سنتناول في هذا المبحث تعريف أهمّ المصطلحات التي تعين على فهم الموضوع وإدراك أطرافه، وعلى النحو الآتي:

المطلب الأول: السورة القرآنية وعناصرها:

يقوم هذا المطلب على عناصر محورية هي: الآية، والموضوع، والسورة، وسيتم بيانها بما يتلاءم وطبيعة هذا البحث فنقول:

السورة القرآنية: السورة تطلق على طائفة محددة من آيات متصلة مرتبة ترتيبا مخصوصا ذات بداية ونهاية[٢]. وعرفها ابن عاشور بأنها: "قطعة من القرآن معينة بمبدأ ونهاية لا يتغيران مسماة باسم مخصوص تشتمل على ثلاث آيات فأكثر في غرض تام ترتكز عليه معاني آيات تلك السورة ناشئ عن أسباب النزول أو عن مقتضيات ما تشتمل عليه من المعاني المتناسبة"[٣]. ويمكن تحديد عناصر السورة بما ينطبق ومتطلبات هذه الدراسة على النحو الآتي:

أولاً: الآية: تعدّ الآية القرآنية المكون الأولي للنص القرآني، فهي الوحدة القرآنية الأولى التي تحمل سمات القرآن باعتباره كلام الله، وعُرِّفت بأنها: طائفة ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة من القرآن(٤).

وقد أجمعت الأمة على أن ترتيب الآيات في السورة الواحدة توقيف من الله تعالى، والموضوعات تبعا لها، قال ابن حجر: "وَلَا خِلَافَ أَنَّ تَرْتِيبَ آيَاتِ كُلِّ سُورَةٍ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ الْآنَ فِي الْمُصْحَفِ تَوْقِيفٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى ذَلِكَ نَقَلَتْهُ الْأُمَّةُ عَنْ نَبِيِّهَا ﷺ"(٥).

ثانياً: الموضوع القرآني: ما يطرحه القرآن من قضايا متعلقة بدين الإسلام أو ما يتطلبه من مسائل الدعوى إليه. والموضوع في القرآن على مستويين، أولهما: موضوعات جزئية: وهي ما وضع ليجسد فكرة قرآنية واحدة. وثانيهما: ما يطرحه القرآن من قضايا حيث تتضافر في تجسيدها عدة موضوعات جزئية. ويمكن أن نطلق على هذا المستوى (الموضوع المركب أو الكلي) وتتراوح موضوعات القرآن في المستوى الثاني بين قضايا العقيدة كالإلهيات والنبوات والسمعيات، ومنها ما يتعلق بأحوال المكلفين نحو أحكام الصلاة والزكاة وسائر العبادات، ومنها ما يتعلق بالإخبار كالإخبار عن الأمم السابقة، والإخبار عن المستقبليات والخلق ومجرياته وغير ذلك. وهذا الأخير سنطلق عليه (مصطلح المَعْقَد)؛ ويمكن أن نعرّفه بأنّه: طائفة من الموضوعات المتقاربة المضمون، ومتتابعة الورود، تندرج في سورة.

ومن هنا يظهر وجه التعلق بين الموضوع والمعقد؛ ذلك أن المعقد يتضمن عدة موضوعات جزئية أو كلية، وفي سياق آية أو آيات متعددة ومتتابعة.

وتتجلى علاقة الموضوع بالآية؛ أن الآيات محمل الموضوعات، فبعض الآيات تحمل موضوعا واحدا، وبعضها يحمل عدة موضوعات، كما أن بعضها يحمل جزء موضوع حيث تتضافر عدة آيات لتجسيد موضوع واحد.

المطلب الثاني: تعريف علم المناسبة:

أولاً: علم المناسبة أو التناسب: أصل التناسب في اللغة من الاتصال(٦).

وعرفه البقاعي بأنه: "علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المقال لمقتضى الحال"(٧).

ونقل الزركشي في البرهان عن ابن العربي قوله إنه: "ارْتِبَاطُ آيِ الْقُرْآنِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ حَتَّى تَكُونَ كَالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ مُتَّسِقَةَ الْمَعَانِي مُنْتَظِمَةَ الْمَبَانِي"(٨).

المطلب الثالث: السياق القرآني، تعريفه، وأهميته، وعلاقته بعلم المناسبة:

أولاً: تعريفه: يُعرَّف السياق في الاصطلاح بأنّه: "مجموعة القرائن اللفظية والحالية الدالة على قصد المتكلم من خلال تتابع الكلام وانتظام سابقه ولاحقه به"(٩).

ويمكن تعريف السياق بأنه مجموع العوامل الذاتية والخارجية للنص، المرتبطة بمقصد المتكلم، وحال المتلقي، والتي تعين على فهم ذلك النص.

وأما السياق القرآني فيمكن تعريفه بأنه: "تتابعُ المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية؛ لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال"(١٠).

ثانياً: أهمية السياق: تكمن أهمية السياق باعتباره أصلاً في تفسير النصوص، وفهم مراد المتكلم على وجه أمثل، وقد أشار

العلماء إلى أهمية السياق أو المقام وتطلّبِه مقالا مخصوصا يتلاءم معه، وقالوا عبارتهم الموجزة الدالة (لكل مقامٍ مقال). وتبرز أهمية السياق القرآني كونه يعدُّ تفسيرا للقرآن من خلال نصوصه، وأحوال تراكيبه الذاتية، وملابسات نزوله، فكان الرجوع إلى السياق والاحتكام إليه عند المفسرين قرينة من أهم القرائن الخادمة للتفسير. وتبرز أهمية السياق في ميدان التفسير في أمور:

١. أن السياق يعدّ من باب تفسير القرآن بالقرآن الذي هو أصحُّ طرق التفسير وأحسنها.
٢. أنه يعد أصلا من أصول التفسير حيث نجده حاضرا في تفسير النبي ﷺ والمفسرين من السلف الصالح.
٣. أن السياق القرآني معتبر في حل الإشكال والتشابه اللفظي والمعنوي في الآيات، ويسهم في استظهار المناسبات وأسرار التراكيب(١١).

ثالثا: علاقة السياق بعلم التناسب (التناسب السياقي):

إن الناظر في علم السياق القرآني وعلم المناسبات يجد بينهما علاقة وثيقة، فكلاهما يقوم على تضافر عناصر النص القرآني، وكل منهما يكمل الآخر، فالسياق يعين على فهم المناسبات، والمناسبات بين الآيات والموضوعات تؤدي إلى تلاحم الكلام وانسجامه، الأمر الذي يجعل منه سياقا واحدا مؤتلفا، ومما يظهر في العلاقة بين هذين العِلْمين أن المناسبة غاية والسياق وسيلة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فكلاهما وسيلة ترتبط بغاية أعم هي فهم مقصود الله من كلامه(١٢).

المطلب الرابع: المقصود بالآيات المعترضة للسياق في الموضوع القرآني الواحد ومباينتها للجملة المعترضة:

أولاً: الآيات المعترضة: هي آية أو أكثر أو جزء آية تتضمن موضوعا مستقلا تقطع سلسلة آياتٍ تتمحور حول فكرة رئيسة واحدة أو تقطع سلسلة الموضوع الذي يتحدّث عنه النّص. وموضوع الآيات المعترضة في السياق الموضوعي القرآني ينبني على مجيء موضوع طارئ –في الظاهر– على سلسلة الموضوعات ذات الفكرة الواحدة بما يتلاءم وحال المتلقي فيما تتشوف إليه نفسه من مسائل اقتضاها سياق تلك الموضوعات لحكمة أرادها الله من ذلك، أو ما يقتضيه المقام في إضفاءِ مزيدٍ من الأهمية على الموضوع المعترض، أو إيرادا لمعنى تقتضيه ملابسات النزول، وغير ذلك، فالنص القرآني كثيرا ما يقطع الكلام في موضوع معين ليتحدث عن موضوع آخر، ثم يعود لإكمال الموضوع الأول، وكأنه يريد لفت النظر إليه، من خلال المرور به عرضا في أثناء سياق موضوع آخر.

وقد عرض عدد من العلماء قديما وحديثا لهذا الموضوع تحت مسميات مختلفة فمن المتقدمين السيوطي الذي ذَكَرَهُ تحت مسمى الاستطراد، فقال: "وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْفَرْقُ بَيْنَ التَّخَلُّصِ وَالِاسْتِطْرَادِ أَنَّكَ فِي التَّخَلُّصِ تَرَكْتَ مَا كُنْتَ فِيهِ بِالْكُلِّيَّةِ وَأَقْبَلْتَ عَلَى مَا تَخَلَّصْتَ إِلَيْهِ وَفِي الِاسْتِطْرَادِ تَمُرُّ بِذِكْرِ الْأَمْرِ الَّذِي اسْتَطْرَدْتَ إِلَيْهِ مُرُورًا كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ ثُمَّ تَتْرُكُهُ وَتَعُودُ إِلَى مَا كُنْتَ فِيهِ كَأَنَّكَ لَمْ تَقْصِدْهُ وَإِنَّمَا عَرَضَ عُرُوضًا"(١٣).

ومن المتأخرين ابن عاشور الذي ذكره بلفظ الاعتراض في غير موضع من تفسيره، فيقول: "تَوَسَّطَتْ هذه الْآيَةُ بَيْنَ آيَاتِ ذِكْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَبِمَا قَابَلُوا بِهِ تِلْكَ النِّعَمَ مِنَ الْكُفْرَانِ وَقِلَّةِ الِاكْتِرَاثِ فَجَاءَتْ مُعْتَرِضَةً بَيْنَهَا لِمُنَاسَبَةٍ يُدْرِكُهَا كُلُّ بَلِيغٍ"(١٤). وكان الإمام الخطابي هو أول من لفت النظر إلى هذا النسق الترتيبي للقرآن، وقد عده من أوجه إعجازه، لكنه تكلم عن ترتيب المطالب على غير معهود البشر، إذ تُضَمُّ الموضوعات المتباينة إلى بعضها عوضا عن المتشاكلة، وقد ينطبق هذا على مصطلح التخلص أكثر من انطباقه على مصطلح الآيات المعترضة، وفي ذلك يقول الخطابي: "وأما قولهم:

لو كان نزول القرآن على سبيل التفصيل والتقسيم ، فيكون لكل نوع من أنواع علومه حيز وقبيل، لكان أحسن نظمًا وأكثر فائدة ونفعًا فالجواب: أنه إنما نزل القرآن على هذه الصفة من جمع أشياء مختلفة المعاني في السورة الواحدة وفي الآية المجموعة القليلة العدد لتكون أكثر لفائدته وأعم لنفعه. ولو كان لكل باب منه قبيل، ولكل معنى سورة مفردة لم تكثر عائدته، ولكن الواحد من الكفار والمعاندين المنكرين له إذا سمع السورة منه لا تقوم عليه الحجة به إلا في النوع الواحد الذي تضمنته السورة الواحدة فقط، فكان اجتماع المعاني الكثيرة في السورة الواحدة أوفر حظًا وأجدى نفعًا من التمييز والتفريد للمعنى الذي ذكرناه"[١٥]. وسيأتي في أثناء الدراسة ما يؤكد استعمال المصطلح وشُيُوْعِهِ عند علماء التفسير

ثانياً: الفرق بين الآيات المعترضة في الموضوع القرآني الواحد والجُمْلَة المعترضة:

من خلال بيان المقصود بالآيات المعترضة، وما تقرر في علم النحو عن الجملة المعترضة[١٦]، فإنه يظهر أن لا وجه للمقارنة بين موضوع الجملة المعترضة وموضوع الآيات المعترضة، لأن الآيات المعترضة تجسد موضوعا قرآنيا مستقلا، وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بالجملة المعترضة، فهي لا تمثل موضوعا مستقلا، حيث إن نزعها من السياق يفقدها دلالتها القرآنية، وليس هذا الأمر في الآيات المعترضة؛ فهي وإن نزعت من سياقها تبقى محتفظة بمضمونها وقرآنيتها. ومن الفروق بينهما أن سابق جملة الاعتراض ولاحقها بينهما –ضرورة– علاقة نحوية، وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى الآيات المعترضة، ومن ذلك أيضا أن جملة الاعتراض لا محل لها من الإعراب، وأما الآيات المعترضة لا ينطبق عليها هذا الشرطُ بوصفها كلاما تاما يحمل بمضمونه موضوعا مستقلا يتصل بسابقه ولاحقه اتصالاً معنويًا. ومن الفروق بينهما أن ميدان الجملة الاعتراضية الآية من جهة اللغة، وأما الآيات المعترضة فميدانها الموضوع والسورة.

المبحث الثاني
نماذج من التناسب السياقي للآيات المعترضة بين الموضوع الواحد

وفيه خمسة مطالب:

يتناول هذا المبحث دراسة نماذج من الآيات التي جاءت معترضة بين موضوع قرآني واحد؛ يوهم وجودها في مكانها عدم اتصالها بما قبلها وبما بعدها، في محاولة للكشف عن أوجه المناسبة بين الموضوع المعترض وما أعترض فيه، ومناقشة حقيقة هذا الانقطاع الظاهري من خلال النظر في أوجه مناسبة ذلك مع السياق الناظم، وقد قمنا باختيار عدة مواضع تبرز فيها هذه القضية؛ لتأكيد توافر هذه الظاهرة في النص القرآني، وقد جعلنا كلَّ موضع مطلباً على النحو الآتي:

المطلب الأول: قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩].

أولاً: توضيح وجه الاعتراض: أتت هذه الآيات تتحدث عن أمر الله تعالى أمة الإسلام أن يحافظوا على الصلوات، بكافة شروطها وأركانها، وفي أوقاتها التي وجبت فيها، وكذلك بيان أن هذه العبادة لا تسقط عن المؤمن البالغ العاقل أبدا، في السلم والحرب، في السلامة والمرض، وفي أيّ ظرف ما دام هذا الإنسان يتمتع بالحياة والعقل، وقد صرحت الآيات بنوع من الأحكام الخاصة في ظروف خاصة، وهي حال الخوف، فقد شرع الله لهذه الحال أحكاماً فيها من التخفيف ما يتلاءم مع

المصلحة العامة في حماية الأمة أفراداً وجماعات، وتنتهي الرخصة بزوال سببها، وعند ذلك يكون العود إلى الأصل.

ومن الواضح أن هاتين الآيتين وقعتا في أثناء الكلام عن أحكام النساء من طلاق وعِدة. فقد سبق آيتي الصلاة، الحديث عن أحكام النساء في حال وفاة أزواجهن عنهن، وما يترتب عليهن من عدة، وما يثبت لهن من متعة عند الطلاق.

وعليه فالآيتان اعتراضٌ في موضوع أحكام الطلاق والعدة، وما يجب للمرأة، وما يجب عليها، فسلسلة الموضوعات في سابق الآيات تناولت الطلاق والعدة والمهر وتفاصيل ذلك، ويتصل الموضوع السابق باللاحق من خلال سلسلة الأحداث وفي ذات الموضوع، وعلى نفس الشخوص، وهم الأزواج من الطرفين، ومن له سلطة عليهم، وهؤلاء المخاطبون هم جزءٌ من الأمة، ولذلك فالمقطع الأول والثالث يشكلان موضوعا واحدا يكمل بعضه بعضا. وأما موضوع الصلاة والمحافظة عليها في السلم والحرب فهو موضوع مختلف؛ وعليه فالآيتان المتوسطتان يمثلان موضوعا معترضا في سياق موضوع آخر، وقد أشار إلى ذلك العلماء، فقال أبو السعود: "ولعل الأمرَ بها في تضاعيف بيان أحكامِ الأزواج والأولاد قبل الإتمام"(١٧)، وقال الألوسي: "وقيل: أمر بها في خلال بيان ما تعلق بالأزواج والأولاد من الأحكام الشرعية المتشابكة"(١٨)، ويقول سيد قطب: "يجيء هذا الحكم في ثنايا تلك الأحكام وقبل أن ينتهي منها السياق. وتندمج عبادة الصلاة في عبادات الحياة، الاندماج الذي ينبثق من طبيعة الإسلام"(١٩).

ثانياً: أوجه التناسب بينها وبين الموضوع المباشر محل الاعتراض:

تناول المفسرون هذا الموضع بالبحث، باعتباره موضوعا معترضا أتى في أثناء سياق موضوع آخر، وكان لهم في بيان أوجه المناسبة آراء وأقوال، نعرضها على النحو الآتي:

علّل الراغب الأصفهاني مجيء آية المحافظة على الصلاة بين أحكام الطلاق بأمور:

١- أنه طريق من طرق ترتيب القرآن، تيسيرا على النبي في تلقنه وتلقينه.

٢- ما درج عليه القرآن من اتْباع ما يتعلق بالدنيا من أحكام أحكاما تتعلق بالآخرة ترغيبا فيها، وحثا على التزام أوامر الله وأحكامه الدنيوية والأخروية.

٣- أنه لما حث على العفو ورغب بالفضل، أتبع ذلك بذكر الصلاة لما لها من أثر على التزام المؤمنين أحكام وأوامر ربهم، فهي الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر(٢٠).

ورأى البيضاوي أن سبب ذكر آية الصلاة هو لفت الانتباه إليها وعدم الاشتغال عنها بالأزواج والأولاد فقال: "ولعل الأمر بها في تضاعيف أحكام الأولاد والأزواج لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها"(٢١).

وقد ذهب ابن عاشور في بيان المناسبة بين الآيات مذهباً يتوافق مع رأيه المتمثّل من عدم وجود ضرورة ملزمة للبحث عن أوجه للمناسبة عند الانتقال من موضوع إلى موضوع في القرآن الكريم. يقول: "الِانْتِقَالُ مِنْ غَرَضٍ إِلَى غَرَضٍ فِي آيِ الْقُرْآنِ لَا تَلْزَمُ لَهُ قُوَّةُ ارْتِبَاطٍ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ كِتَابَ تَدْرِيسٍ يُرَتَّبُ بِالتَّبْوِيبِ وَتَفْرِيعِ الْمَسَائِلِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ، وَلَكِنَّهُ كِتَابُ تَذْكِيرٍ وَمَوْعِظَةٍ فَهُوَ مَجْمُوعُ مَا نَزَلَ مِنَ الْوَحْيِ فِي هَدْيِ الْأُمَّةِ وَتَشْرِيعِهَا وَمَوْعِظَتِهَا وَتَعْلِيمِهَا، فقد يجمع بِهِ الشَّيْءُ لِلشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ لُزُومِ ارْتِبَاطٍ وَتَفَرُّعِ مُنَاسَبَةٍ، وَرُبَّمَا كَفَى فِي ذَلِكَ نُزُولُ الْغَرَضِ الثَّانِي عَقِبَ الْغَرَضِ الْأَوَّلِ، أَوْ تَكُونُ الْآيَةُ مَأْمُورًا بِإِلْحَاقِهَا بِمَوْضِعٍ مُعَيَّنٍ مِنْ إِحْدَى سُوَرِ الْقُرْآنِ"(٢٢). ثم يرتد على نفسه، فيبيّن سرّ مجيء موضوع المحافظة على الصلاة عقب هذه الموضوعات قائلاً: وَلَا يَخْلُو ذَلِكَ مِنْ مُنَاسَبَةٍ فِي الْمَعَانِي، أَوْ فِي انْسِجَامِ نَظْمِ الْكَلَامِ""، ثمّ ذكر ما ذكره العلماء من قبله. وأضاف في بيان وجه التناسب: "أن يكون حصل تساهل في أداء الصلاة الوسطى أثناء فترة نزول الآيات

المتعلقة بالزواج والطلاق ومسائله، فوضعت في ذلك الموضع"[٢٣]. وإنّ هذا الاختلاف في موقف ابن عاشور يرجع إلى أنه يريد التأكيد على أنّ القرآن كتاب مباين للكتب الأخرى في نظمه وترتيبه، ومن باب الاحتياط لهذا العلم الذي مبناه على الذوق بالمقام الأول؛ لذا لا يلزم الجميعُ الخوضَ فيه وتكلف البحث عن المناسبات بين آيات القرآن وموضوعاته.

وقد أبرزَ سعيد حوّى جانبا من حكمة وقوع آية الصلاة بين آيات الطلاق فقال: "هاتان الآيتان في شأن الصلاة وردتا بعد آيات في الطلاق فما الحكمة في ذلك؟

أ) إنّ هذه الآية جاءت في سياق الحديث عن أحكامٍ حياتية كثيرة؛ فناسب التذكير بالصلاة في هذا المقام، ليعلم أن الصلاة هي في كلّ وقت وأنها ضرورية. ومحلها في الإسلام لا يصح أن ينسى.

ب) إنّ ذكر الصّلاة في هذا السياق لبيان أنّها من مقوّمات الدخول في الإسلام، فلا يصحّ دخول الإسلام إلا بصلاة ومن ثم ذكرت الصلاة في هذا السياق قال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي}.

ج) إن مجيء الأمر بالصلاة بين أحكام الطلاق وغيرها من شئون النساء، يشعر أن هذه الأحكام تحتاج إلى صلاة في كل حال، في السلم والحرب، حتى تقوم، وأن المسلم الذي لا يقيم الصلاة في كل حال، لا يقيم أحكام الله الأخرى.

د) إن هاتين الآيتين هنا توطئة لما بعد آيات الطلاق، وربطاً لما بعد آيات الطلاق، بما قبل آيات الطلاق والنكاح. فقد جاء قبل هاتين الآيتين حديث عن القتال ضمن الحديث عن النكاح وأحكامه. وكذلك جاء بعد آيات الطلاق كلام عن القتال. وفي هاتين الآيتين أمر بالصلاة وإقامتها حتى في القتال؛ لبيان أنّ الإسلام؛ كل متكامل، يتغذى كل جزء منه من الآخر، ويخدم كل جزء منه الآخر. وقيامه جميعا مرتبط بعدم نسيان جزء منه. ولا إسلام إلا بصلاة[٢٤].

وعلى ضوء من أقوال العلماء يمكن إجمال أوجه المناسبة بين آيتي المحافظة على الصلاة والموضوع المعترض فيه على النحو الآتي:

١. إنه لما كان نزول القرآن منجما بحسب الحاجات والأحوال، وذلك تيسيرا على النبي في تلقنه إياه وتلقينه، ففي حين نزول هذا النجم، أمر النبي وضعه فيما كان قد نزل أثناءه من أحكام، وهذا نوع من طرق ترتيب القرآن.

٢. إنه من عادة القرآن اتْباع الإحكام المتعلقة بمصالح الناس ما يذكر بالآخرة، وليس أكثر تذكيرا بها من الصلاة، فهي الصلة بين العبد وربه، وأعظم العبادات التي تطلب بها الآخرة.

٣. إنه لما كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتذكر بالآخرة، وكانت أحكام النساء والأولاد والطلاق والعدة وغيرها مظنة الخلاف، والتنازع والرغبة بالانتقام والنزوع إلى المغالبة، وكان الخطاب للبشر وما يتملكهم من طبع الهلع، جاءت آيتا الصلاة تربية للنفس على التسامح، وتوطينا لها على امتثال أوامر الله، بكل الحب والطواعية، وحثًّا لها على البذل والعطاء.

٤. إن إيراد آيتي المحافظة على الصلاة في أثناء أحكام العدة والطلاق ومتعلقاته، فيه تنبيه للمؤمنين بأن لا يشتغلوا عن الصلاة، فالصلاة عماد الدين، وهذا التنبيه إنما جيء به لأن هذه الأحكام الدنيوية من شأنها أن يشتغل بها عن الصلاة وسائر العبادات، وهذا حد لا ينبغي للمؤمن تجاوزه.

٥. إنه لما كان ملاك الموضوع المعترض فيه الدنيا وأحكامها، وحقوق الناس على الناس، ناسب التذكير بحقوق الله عليهم، إذ حقوق الله أولى بالأداء، وأجدر ألا تنسى أو أن يتهاون بشأنها، فإنه لما كان المحافظة على الصلاة مطلوبة في أثناء القتال وفي ساح الخوف، حيث الأمر أعظم وأشد على النفس، وأولى أن يتهاون بشأن الصلاة، ولم يكن ذلك، فالمحافظة عليها في خضم مشاكل الأزواج لا شك أولى وأخلق.

٦. إن مجيء آيتي المحافظة على الصلاة مندمجة مع أحكام الأسرة، إيذانا بالتزام أوامر الله المتعلقة بالأسرة وما يكتنفها، على ذات السوية التي يجب على المؤمن أن يلتزم بأحكام الصلاة، فكل من عند الله، وهذا تنويه عال بشأن امتثال أوامر الله فيما يتعلق بالأحكام الدنيوية مما نص عليه القرآن الكريم.

٧. من أوجه المناسبة ما استند على احتمال أو توقع حصول تهاون أو نسيان لبعض الصلوات من بعض المسلمين أثناء تنزيل آيات الطلاق والعدة، فنزلت هاتان الآيتان تنبيها ومسارعة لتدارك هذا القصور، واجتثاثا لهذا الخلل، تعظيما لأمر الصلاة، وأنه ليس من المقبول في حال التهاون بأدائها على وجهها الأتم.

٨. إنه لما كان لأحكام الطلاق والعدة أثر مرده إلى الطبع، إذ النفس مضطرة للتنازل عن بعض ما لها من حقوق، حيث الأمر بالعفو وبيان أنه أقرب للتقوى، جاء بدواعين لذلك الداء: أحدهما: الأمر بنشر الفضل بين الناس، وهذا نمير عذب، لا يحرم خيره أحد، وبادئه أولى أن يصيب من ذلك الخير، والثاني: الأمر بالصلاة التي هي دواء الأنفس الشح، فالصلاة تخلع عن النفس التعلق بالدنيا، وتخلع عليها الطمأنينة والسكينة، وتغرس فيها محبة الناس.

٩. إن المجيء بموضوع الصلاة في تضاعيف الكلام عن الحقوق الدنيوية فيما بين الأزواج، إنما هو دعوة إلى التوازن في الاشتغال بشؤون الدنيا وشؤون الآخرة، فلا يطغى أحدهما عند المؤمنين على الآخر، إيماءا إلى أن التصور الإسلامي للدين تصور كلي وشامل ومتوازن.

ويمكن توضيح التناسب السياقي في هذا الموضع بالقول: إنه لما كان الكلام فيما سبق من الآيات لهاتين الآيتين وما تلاهما في أحكام متعلقة أصلا بالمال كسبا وخسارة، وتقييداً للحرية، فالإيلاة حرمان، والتربص بالنفس وعدة المطلقة والمتوفى عنها زوجها، هذا كله تقييدا لحرية المرأة، والمهر والمتعة خسران للمال، وفي ذلك كله أثر على النفس، فلربما جعلت من ذلك محلا لقهرها، ومصدرا لتهديد كيانها، وقد تتخذ من هذه الأحكام عدوا لها، فتقسو القلوب، مما يحدث في النفس صراعا بين قبولها أحكام ربها وبين تمردها وصيانتها لذاتها من الكبت والحرمان، وفي ظلال هذا الصراع المعتم، يبرز النور فيبدد الظلام وينشر الضياء، فتنحسر مساحة الصدود والإحساس بالكبت والحرمان، ويطغى عليها الأمل والتفاؤل بامتثال أوامر الله مع اليقين بأن هذه الأحكام إنما غايتها مصلحة الناس، وأن ليس كل ما تهوى النفس خيراً لها، ولا كل ما تكره هو شراً عليها، فالصلاة هي النور الذي انبثق ليطهر النفوس مما قد لحق بها من وسواس، وترد القلوب المؤمنة إلى اللين بعدما انتابها من قسوة، كيف لا والصلاة حياة القلوب، وصلة الإنسان بربه، وجدير بها أن تعطر الدروب، وأن تكون شجرة وارفة الظلال، ترد للروح والبدن القوة والعزيمة على مواصلة الدرب.

وكذلك فإن النفس المنكسرة قد تغفل في حال إحساسها بالتقييد والحرمان، وخسران الأموال، تغفل عن عبادة ربها تحت أثر ما ران على القلوب بسبب ذلك الإحساس الخادع، المنبثق عن طبعها غير المهذب، وإذ النفس على هذا الحال يأتي الفرج من صاحب الفرج، فيذكّر عباده بالصلاة ويأمرهم بالمحافظة عليها، فهي رأس مال المؤمن، وعليه بحكم إيمانه أن تبقى عنوان انتمائه لهذا الدين، ومما يجعل هاتين الآيتين في موقعهما ذروة في الإحكام، ونهاية في الانسجام أن الحكيم العليم يعلم أن أحكام الطلاق والعدة ومتعلقاتها، هي من مداخل شياطين الجن والإنس إلى مغارس السوء، للتشكيك بهذا الدين القيم، فاقتضى ذلك دفع أثر ذلك عن عقل المؤمن ونفسه، إذ أتت الآيتان حائلا يصد عن المؤمن زيغ الزائغين، وما يحيكه المبطلون، فبحق إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتحول بين المؤمن وأدواء النفس الأمارة، وحبائل الشياطين.

المطلب الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا * مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[الكهف: ٥٠، ٥١].

أولاً: بيان وجه الاعتراض:

تتحدث الآيات الكريمة المعينة عمّا جرى من فسوق إبليس لما استكبر وأبى أن يسجد لآدم امتثالا لأمر الله –جل وعلا–خلافاً للملائكة. ثم بيّنت أنّ المضلّينَ ليسوا موضعاً للثقة؛ لضعفهم وافتقارهم لجلب النفع لأنفسهم فكيف لهم أن ينفعوا غيرهم. والمتأمّل يجدُ أنّ هذه الآيات جاءت بين آيات تتناول موضوعاً واحداً وهو الحديث عن القيامة ومشاهدها وما سينتاب المجرمين من ندم وحسرة، على ما فرطوا في جنب الله. فقبل هذه الآيات قوله تعالى: **﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾** إلى قوله: **﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾**[الكهف: ٤٧-٤٩]، ثم ينتقل السياق إلى موضوع سجود الملائكة وفسوق إبليس، وينضم إليه قوله تعالى: {مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا}، وهاتان الآيتان تشكلان موضوعا معترضا، لأن السياق بعد ذلك يعود للحديث عن القيامة وما سيجري بها من أهوال على صعيد العذاب المادي والنفسي. قال تعالى: **﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا * وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾**[الكهف: ٥٢، ٥٣]، فالآيات قبل الحديث عما جرى من إبليس والآيات بعده متجانسة ويكمل ثانيهما الأول، فهي تجسد موضوعا واحدا، وللوهلة الأولى يظهر أن موقع قصة إبليس مقحم على السياق.

وقد نصَّ الزمخشري على هذا الاعتراض بقوله: "وهذا الكلام المعترض تعمّد من الله تعالى لصيانة الملائكة عن وقوع شبهة في عصمتهم."[٢٥].

ثانياً: بيان أوجه التناسب بين الآيات المعترضة وسياقها:

ذكر المفسرون أوجها للتناسب بين هذه الآيات وما قبلها وما بعدها، وسنعرض لآراء بعضهم كما يأتي: ذكر الرازي في مناسبة هذا الموضوع وسياقه وجهان الأول يمثل رأيه، والثاني نقله عن القاضي عبد الجبار، فقال: "اعْلَمْ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ ذِكْرِ الْآيَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ الرَّدُّ عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ افْتَخَرُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَعْوَانِهِمْ عَلَى فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَهَذِهِ الْآيَةُ الْمَقْصُودُ مِنْ ذِكْرِهَا عَيْنُ هَذَا الْمَعْنَى، وَذَلِكَ لِأَنَّ إِبْلِيسَ إِنَّمَا تَكَبَّرَ عَلَى آدَمَ لِأَنَّهُ افْتَخَرَ بِأَصْلِهِ وَنَسَبِهِ ... فالله تعالى ذكر هذه القصة هاهنا تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ هِيَ بِعَيْنِهَا طَرِيقَةُ إِبْلِيسَ ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى حَذَّرَ عَنْهَا وَعَنِ الِاقْتِدَاءِ بِهَا فِي قَوْلِهِ: **﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ﴾** فَهَذَا هُوَ وَجْهُ النَّظْمِ وَهُوَ حَسَنٌ مُعْتَبَرٌ، وَذَكَرَ الْقَاضِي وَجْهًا آخَرَ فَقَالَ: إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ مِنْ قَبْلُ أَمْرَ الْقِيَامَةِ وَمَا يَجْرِي عِنْدَ الْحَشْرِ وَوَضْعَ الْكِتَابِ وَكَأَنَّ الله تعالى يريد أن يذكر هاهنا أَنَّهُ يُنَادِي الْمُشْرِكِينَ وَيَقُولُ لَهُمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِي زَعَمْتُمْ وَكَانَ قَدْ عَلِمَ تَعَالَى أَنَّ إِبْلِيسَ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُ الْإِنْسَانَ عَلَى إِثْبَاتِ هَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءِ، لَا جَرَمَ قَدَّمَ قِصَّتَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِتْمَامًا لِذَلِكَ الْغَرَضِ"[٢٦].

وزاد البيضاوي وجهاً آخر للمناسبة بين الموضعين فقال: لما بين حال المغرور بالدنيا والمعرض عنها وكان سبب الاغترار بها حب الشهوات وتسويل الشيطان. زهدهم أولاً في زخارف الدنيا بأنها عرضة الزوال والأعمال الصالحة خير وأبقى من أنفسها وأعلاها، ثم نفرهم عن الشيطان بتذكير ما بينهم من العداوة القديمة"[٢٧].

وأمّا البقاعي فقد ذَكَرَ ما ذكره مَنْ سَبقَه من المفسرين في ربط الآيات بما قبلها وزاد بربط الموضوع المعترض بما يليه

فقال: "ولما أقام البرهان القاطع على بعد رتبتهم عن المنزلة التي أحلوهم بها من الشرك، أتبعه التعريف بأنهم مع عدم نفعهم لهم في الدنيا يتخلون عنهم في الآخرة أحوج ما يكونون إليهم تخييباً لظنهم أنهم يقربونهم إلى الله زلفى"(٢٨).

وقد كشف عبد الكريم الخطيب عن وجه المناسبة بين الموضعين فقال: "مناسبة هذه الآية لما قبلها، هي أن الآيات السابقة قد عرضت الناس بين يدي الله يوم القيامة، فإذا هم مؤمنون، وكافرون، مؤمنون قد آمنوا بالله، واستجابوا لدعوته على يد رسله، وكافرون قد خرجوا عن أمر الله، وعصوا رسله، وهنا صورة في الملأ الأعلى، تشبه هذه الصورة التي وقعت في الأرض، حيث جاءت دعوة الله إلى الملائكة أن يسجدوا لآدم، فسجدوا امتثالا لأمر الله، ولكن كائنا من كائنات الملأ الأعلى قد غلبت عليه شقوته، ففسق، أي خرج عن أمر ربّه، وأبى أن يسجد!! فطرده الله من الملأ الأعلى، وألقى به إلى العالم الأرضي، صورة للتمرد والعصيان، ودعوة من دعوات الإغواء والإفساد والفسوق عن أمر الله، إلى جانب الدعوة التي يحملها رسل الله إلى الناس بالهدى والإيمان"(٢٩)، فيشير بهذا إلى أن الابتلاء لا بد أن يميز الله به الخبيث من الطيب، وذلك مذ أول ابتلاء أجراه الله على الكائنات، فكان طرد إبليس وفسوقه، وامتثال الملائكة، نتيجة ذلك الابتلاء، وهذه سنة من سنن الله في خلقه، جرت وستجري على كل عاقل مختار، وهذا وجه من أوجه المناسبة يمتاز بالعمق والأصالة.

وقد جعل ابن عاشور المناسبة بين الموضعين على سبيل المقابلة، فقال: "عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ **﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾** [الْكَهْف: ٤٧] بِتَقْدِيرِ: وَاذْكُرْ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ، تَفَنُّنًا لِغَرَضِ الموعظة الَّذِي سيقت لَهُ هَذِهِ الْجُمَلُ، وَهُوَ التَّذْكِيرُ بِعَوَاقِبِ اتِّبَاعِ الْهَوَى وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الصَّالِحَاتِ، وَبِمَذَاحِضِ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعُجْبِ وَاحْتِقَارِ الْفَضِيلَةِ وَالِابْتِهَاجِ بِالْأَعْرَاضِ الَّتِي لَا تُكْسِبُ أَصْحَابَهَا كَمَالًا نَفْسِيًّا. وَكَمَا وُعِظُوا بِآخِرِ أَيَّامِ الدُّنْيَا ذُكِّرُوا هُنَا بِالْمَوْعِظَةِ بِأَوَّلِ أَيَّامِهَا وَهُوَ يَوْمُ خَلْقِ آدَمَ، وَهَذَا أَيْضًا تَمْهِيدٌ وَتَوْطِئَةٌ لِقَوْلِهِ: **﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾** الْآيَة [الْكَهْف: ٥٢]، فَإِنَّ الْإِشْرَاكَ كَانَ مِنْ غُرُورِ الشَّيْطَانِ بِبَنِي آدَمَ. وَلَهَا أَيْضًا مُنَاسَبَةٌ بِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي أَنْحَتْ عَلَى الَّذِينَ افْتَخَرُوا بِجَاهِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَاحْتَقَرُوا فُقَرَاءَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ الْكَمَالِ الْحَقِّ وَالْغُرُورِ الْبَاطِلِ"(٣٠).

لقد دارت أقوال العلماء في هذا الصدد على أن خبر الملأ الأعلى إنما جيء به في هذا الموضع:

١- لأن الحديث عن المجرمين ومآلهم يوم القيامة اقتضى الحديث عن السبب الأساس للغواية، إما تبكيتا للكافرين والمنافقين، أو تقريعا لضعاف الإيمان، أو تحذيرا للمؤمنين.

٢- عقد مقارنة بين مسلك الكافرين بافتخارهم بأنفسهم واحتقارهم فقراء المسلمين، وبين مسلك الشيطان حيث دفعه كبرياؤه واعتداده الغالي بنفسه إلى الفسوق عن أمر ربه، وبالتالي الطرد من رحمة الله تعالى.

٣- إشارة إلى أن انقسام الناس إزاء الابتلاء إلى مهتد وكافر إنما هو سنة من سنن الله في خلقه المختار العاقل، وكان خبر الملأ الأعلى الابتلاء الأول، فجيء به بعد الكلام عن الكفار وما سيصير إليه حالهم، على أنه نتيجة لسقوطهم في الابتلاء، وتحذيرا للناس من ذلك المصير، الذي هو ذات مصير إبليس اللعين.

٤- ومن ذلك أن جعل الحديث عن خبر خلق آدم تذكيرا على سبيل المقابلة، فكما وعدوا في آخر الأيام ناسب الحديث عن أول أيام الخلق على سبيل التقابل.

ويمكن توضيح التناسب السياقي كما يأتي: إن بيان التناسب السياقي لهذا الموضوع المعترض يتطلب أن نحدد المعقد القرآني المتضمن له، إذ يبدأ المعقد عند قوله تعالى: **﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾**[الكهف: ٤٥].

فافتتح هذا المعقد بمَثَل ضربه الله للحياة الدنيا، كأنما يعقِد شبها بين مظاهر الحياة على الأرض، وبين حال الناس

حيال سنة الابتلاء، فالماء كناية عن الهدى المتجسد في رسالات السماء إلى الناس، ومثل الناس بنبات الأرض، والاختلاط كناية عن مواقف الناس من ذلك الهدى، والمشهد برمته يصور سنة الابتلاء وما يرافقها من تباين في مراتب الخاضعين لها، ثم ما يلبث زمن هذا الابتلاء أن ينفد، سواء على آحاد الناس بالموت، أو على الكافة بقيام القيامة الكبرى، ثم يأتي التعقيب أن الله قادر على تسجيل هذا الاختلاط، ولا يخرج عن علمه بأعمال خلقه ولا مثقال ذرة، وهو قادر على أن يجزي ويجازي بمطلق العدل.

ثم يأتي موضوعٌ تقريريٌّ يؤكدُ الفكرةَ الأولى المستوحاة مما سبق بأن الناس سينقسمون تبعا لهذا الإبتلاء إلى قسمين أحدهما ناظر إلى عاجل من الحياة، فيطلب زينتها من مال وأبناء معتدا بها غير ملتفت إلى مآل الأمر، فهو لا يؤمن إلا بالعاجلة مما هو ملموس ومحسوس بين يديه، والآخر آمن بالآجلة وسعى لها سعيها من الباقيات الصالحات ناظرا ثواب ربه الذي به آمن وصدّق، وعلى مقتضى ذلك اجتهد.

ولما كان الكلام فيما تقدم حول حقيقة الابتلاء ومواقف الناس إزاءه، وانقسام الناس إلى ناظر إلى الدنيا وزينتها ومنتظر الآخرة ونعيمها، هذا النعيم الذي يتمثل في الوقاية من العذاب، ثم الجنة ونعيمها، –ناسب أن ينتقل السياق إلى بيان العذاب يوم القيامة، فهو للمجرمين عذاب، وللمؤمنين الصالحين نعيم يضاف إلى النعيم، فيبدأ الكلام عن هول المطلع، فالجبال مسيرة والأرض بارزة، وهنالك يحشر الله الناس جميعا ثم بعد هذه الأحداث المتتابعة الحاصلة في ذات الزمان والمكان، يأتي حدث آخر هو العرض على الرب العظيم، في حال من الذهول المشوب بالخوف والطمع، وبعد ذلك يتذكر المجرمون ما زعموا ألا موعد ولا حساب، ثم يأتي حدث تتقطع منه قلوب المجرمين إشفاقا على أنفسهم، هو وضع الكتاب، كتاب كل منهم بين يديه، وعندها يسقط في أيديهم، ومع أن الخزي والألم يعتصر القلوب فهم يدركون أن هذا الكتاب لم يظلمهم شيئا، ثم يأتي التعقيب مقررا أن الله العلي الكبير لا يظلم أحدا، فلا ينقص أحد خيرا عمله، ولا يزيد أحد شرا لم يعمله، ويؤتي من لدنه خيرا كثيرا.

وبعد ما ورد في سلسلة الأحداث يوم القيامة، وما حملته من تيئيس وتبكيت للمجرمين، وما حملته من نعيم الوقاية للمؤمنين، يأتي السياق على موضوع خبر الملأ الأعلى وحادثة إبليس، فيكون لهذا الموضوع محملان: فإما أن يحمل على مجرد الإخبار، وهذا قطعا حاصل، أو أن يحمل في إطار الوعد والوعيد، ولكل من المحملين تعلق بالموضوع الآتي، إذ إن الإتيان بخبر الملأ الأعلى ثم التحذير من اتباع إبليس وذريته، وأن إبليس كان وسيبقى سببا لإضلال الناس، سيرا منه في طريق العداء المستحكم؛ فهو يظن أن شقائه إنما كان بسبب آدم، فكان هذا الحقد والعداء والرغبة بالانتقام، فعلى محمل مطلق الخبر، فإن المجرمين الواقعين في العذاب ما هم إلا من جناية أنفسهم عليها وحليفهم في ذلك إبليس حيث سول لهم وأملى لهم، ثم إن ما كان منهم من اختيار للطريق المهلك بالتمرد والعصيان، هو ذاته ما سلكه إبليس حيث تمرد كما تمردوا وعصى كما عصوا، بل هم تابعون له في ذلك، وليس أشد منه فرحا بما آلوا إليه، فهذا مَطْمَحَهُ وغايته أبدا، فالمناسبة على هذا من باب عقد مشابهة بين مواقف إبليس ومصيره، ومواقف المجرمين ومصيرهم.

وأما على محمل الوعيد والتحذير والتنديد، فيكون وجه المناسبة تحذير وتحفيز واستثارة لعقول الناس وتحريكا لدوافع أنفسهم بأن يقفوا من هذا اللعين موقفا يتفق مصلحيا مع أنفسهم، وبأن لا يستبدلوا الولي الحق بالعدو اللدود، فإن هذا مما تسْتَوجبُهُ بداهة العقول وفطرة النفوس، بيد أن هذا المحمل يقتضي إما فطرة سليمة، أو عقلاً نافذ الإدراك، أو إيماناً صحيحا؛ لأن قبول هذا الحث والتحذير يقتضي العلم بصدق الخبر الأساس، ليلزم ما بني عليه.

فوجه المناسبة يتخذ حال الاقتضاء؛ لأن الكلام السابق كان عن المصير الناشئ عن مقتضى الابتلاء وانقسام الناس إزاءه، فاقتضى والحال هذه تصحيحا لمسيرة الإنسان في حياته، وتثبيتا للمؤمنين على الصراط المستقيم، اقتضى ذلك بيان

خبر إبليس لما بين حال الكافر وحال إبليس من التطابق، فالمصير النار والسعير، والسبب العصيان والتمرد، وسبب ذلك التباين في المواقف، بين مؤمن ملتزم، وكافر متمرد، هي سنة الابتلاء؛ حيث فشل إبليس، ونجحت الملائكة، وسينجح المؤمنون ويفشل الكافرون، ثم يأتي موضوع مكمل لخبر الملأ الأعلى هو أن الله يقرر أنه لم يشهد خلق السموات والأرض أحد من المضلين ولا خلق أنفسهم، ليخرجهم من دائرة التكريم إلى دائرة التحقير، وهذا الموضوع مكمل لسابقه.

ثُمَّ يعود السياق للكلام عن يوم القيامة بعد أن انتهى من الموضوع المعترض على سبيل التكميل مع ما قبل الاعتراض، فيسوق حدثا جديدا بعد حدث وضع الكتاب ذلك هو دعوة المجْرِمِيْن إلى أن يدعوا ما كانوا يشركون، ثم أعلمهم أن هذه الدعوة لن تحمل لهم إلا الويل والندم، ثم يقف المجرمون على واقعهم، ويصطدمون بحقيقة الأمر، فيعاينون النار، ويتيقنون أن لا مفر لهم منها، حقيقة مرة وواقع كئيب ومصير سيئ ويأس غير منقطع.

ويحسن الحديث الآن عن وجه المناسبة بين الموضوع المعترض وما يليه، فإنه لما كان الشيطان أصل في تزيين أنواع الشرور والمعاصي، وأعظمها الشرك بالله، والشرك هو أعظم المعاصي وأبعدها عن مغفرة الله ورحمته، وأعظم أسباب الشقاء يوم القيامة، كان ولمزيد من التبكيت والعذاب أن يرى المشركون المجرمون ما كانوا عليه من ضلال ووهم، فناسب من أجل هذا الكلامَ عن تخلي الشركاء عن المشركين إمعانا في العذاب وتعميقا لما ينتابهم من يأس، فقد تخلى عنهم من كان عليه الأمل معقود أن يقدم لهم النجاة، فكانت الطامة أن تخلى وتبرأ منهم شركاؤهم، وإنها لحسرة تقطع القلوب أن يقدم الإنسان كل الإجلال والتعظيم –جهلا– لمظنون بهم الخير، ثم يكتشف أن هؤلاء لا يستحقون شيئا من ذلك، بل كان فعلهم الذي ظنوا به النجاة قد أرداهم ووضعهم في أصحاب السعير، وهذا كله بسبب انقياد هؤلاء لشهواتهم، وتسليمهم خطام عقولهم لإبليس رأس الشر العدو الحاقد، فيالها من مقايظة بالغة الخسران، والسبب الأساس استبعاد الإيمان بالله واليوم الآخر عن تلك الموازنة.

ثم يختتم المعقد بتعقيب على سبيل النتيجة بعد المقدمات، فالله تعالى صرّف في هذا القرآن الأمثال بقصد دعوة الناس إلى الحق، وكان جديرا بهذا الكائن العاقل أن يختار الهدى على الضلال، ويؤثر العاجلة على الآجلة، ويرجح الباقي على الفاني، والدائم على المنقطع، إلا أن هذا الإنسان لا ينفك عن طبعه المجادل، فالجدل بالمسلمات يورث الشك بالضروريات، مما يسوق الإنسان إلى أن يطرح بدائل للحق، الأمر الذي يتلقفه إبليس بالتزيين، بجعله موطنا للغلبه والشعور بالتفوق ولذة الانتصار، فيقوده بذلك مستغلا صفة الجدل إلى موبقه، إلا من رحم الله، فاتخذ من الجدال وسيلة لإثبات الحق ودحض الباطل.

المطلب الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم: ٤٧]:

<u>أولاً: توضيح وجه الاعتراض</u>: توسطت هذه الآية موضوعا قرآنيا يتكلم عن آيات الله الكونية الدالة على قدرته، ففي المقطع الأول تكلمت الآية عن آية الرياح وما فيها من أنواع النعم على الإنسان، فالرياح تبشر بالمطر، وَهِيَ محركات الفلك، فوجب على الإنسان الشكر لله على ما أسبغَ عليه من نعم. ثم ينتقل السياق إلى موضوع آخر هو سنة من سنن الله في بني آدم، هي نصر الله أنبياءه –عليهم السلام–، وسنة الانتقام من المجرمين بعد إعراضهم عن الهدى بتكذيبهم النبي المرسل إليهم. ثم ينعطف السياق عودا إلى آيات الله في الكون، مستكملا الكلام عن نعمة الرياح وما تؤديه من وظيفة في استجلاب المطر الذي هو أصل الحياة، وما يجلبه المطر للناس من بشرى وخير؛ ذلك ليلفت النظر إلى أن الله الذي يأتي بالمطر فيحيي الأرض بعد موتها قادر أن يحيي الموتى من الناس ويحاسبهم على أعمالهم.

فالموضوع المعترض تكلم عن سنة الله في النصر والإهلاك، والموضوع المعترض فيه يتكلم عن آيات وسنن الله في الكون ونعمه على الناس بتسخير هذه السنن والآيات للإنسان في دنياه، وجعلِها عبرةً لنجاته في آخرته.

فالموضوع المعترض يبدو طارئا على السياق، إذ قطع الحديث عن موضوع متحد العناصر ليتكلم عن موضوع آخر مختلف العناصر. وممّن نصّ على هذا الاعتراض أبو حيان قال: "اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ، هَذَا مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ، وَالْجُمْلَةُ الَّتِي بَيْنَهُمَا اعْتِرَاضٌ، جَاءَتْ تَأْنِيسًا لِلرَّسُولِ وَتَسْلِيَةً وَوَعْدًا بِالنَّصْرِ وَوَعِيدًا لِأَهْلِ الْكُفْرِ"(٣١)، وأبو السعود حيث يقول: "ولعلَّ توسيط الآيةِ الكريمةِ بطريقِ الاعتراضِ بين ما سبَقَ وما لَحِق من أحوالِ الرِّياحِ وأحكامِها لإنذارِ الكَفَرةِ وتحذيرِهم عن الإخلالِ بمواجبِ الشُّكرِ"(٣٢). والألوسي الذي عدّه اعتراضا لتسلية النبي ﷺ بمن قبله على وجه يتضمن الوعد له –عليه الصلاة والسلام– والوعيد لمن عصاه(٣٣).

ثانياً: بيان أوجه التناسب بين الآيات المعترضة وبين سياقها:

ذكر المفسرون أوجها للتناسب نذكرها على النحو الآتي:

ذكر الرازي وجها لتعلق الآية بما قبلها فقال: "تَعَلُّقُ الْآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ لَمَّا بَيَّنَ الْبَرَاهِينَ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا الْكُفَّارُ سَلَّى قَلْبَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ حَالُ مَنْ تَقَدَّمَكَ كَانَ كَذَلِكَ وَجَاءُوا أَيْضًا بِالْبَيِّنَاتِ، وَكَانَ فِي قَوْمِهِمْ كَافِرٌ وَمُؤْمِنٌ كَمَا فِي قَوْمِكَ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الْكَافِرِينَ ونصرنا المؤمنين"(٣٤). وهو ما ذهب إليه أبو حيّان(٣٥).

وأقامَ البِقاعيُّ المناسبةَ على وَجْهَيْن أحدهما: أنه لما كان إرسال الرياح مبشرات ومنذرات، فمن آمن أذاقه من رحمته ومن كفر أنزل عليه من نقمته، حيث طوى ذلك في الآية الأولى بينه في الثانية، والوجه الثاني: أنه لما كان السياق أصلا في نصرة أولياء الله وخذلان أعدائه، وكان الأنبياء سببا في إحياء القلوب، وتسيير مصالحهم في معادهم، كما الرياح سبب إحياء الأرض وتسيير مصالح الناس في حياتهم، تحصل من ذلك وجه المناسبة ذلك على سبيل المشاكلة فالرياح مبشرات ومنذرات، وما تأتي الرياح به قد يكون خيرا على قوم، ونفسه شرا على آخرين، كما ما يأتي الرسل به فيؤمن قوم فيكون الخير لهم في حياتهم وآخرتهم، ويكفر آخرون فيكون عليهم وبال إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة ضرورة(٣٦). ثم يضيف أن الآية المعترضة تحمل إضافة إلى ما تقدم تسلية لقلب النبي، مشيرا إلى أن الريح باعتبارها من وسائل إهلاك الله الأمم البائدة، ومبينا إتصال الآيتين بما يليهما، فقال: "ولما أقام سبحانه الدليل على البعث وإقامة الوجود بتصريفه الرياح كيف يشاء وأتبعه آية التسلية والتهديد، وكان عذاب المذكورين فيها بالريح أو ما هي سببه أو لها مدخل فيه، أتبع ذلك الإعلام بأنه مختص بذلك سبحانه تنبيهاً على عظيم آية الرياح للحض على تدبرها، مؤكداً لأمر البعث ومصرحاً به"(٣٧).

وجعل أبو السعود عِلَّةَ "توسيط الآيةِ الكريمةِ بطريقِ الاعتراضِ بين ما سبَقَ وما لَحِق من أحوالِ الرِّياحِ وأحكامِها لإنذارِ الكَفَرةِ وتحذيرِهم عن الإخلالِ بمواجبِ الشُّكرِ المطلوبِ بقولِه تعالى: **﴿لعلَّكم تشكرُون﴾** بمقابلةِ النعمِ المعدودةِ المنوطةِ بإرسالِها كيلا يحلَّ بهم مثلُ ماحل بأولئك الأممِ من الانتقامِ"(٣٨).

وذَكَرَ سعيد حوى أن الصلة بين آيتي الرياح "واضحة. فالمعنى واحد، ولكن سيق المعنى هناك للتدليل على وجود الله، وسيق هنا للتذكير باليوم الآخر، ولكن لم وجدت الآية الوسطى بينهما؟ إنّ الآيتين تضيئان على الآية التي جاءت بينهما. فنفهم من ذلك أنّه كما أن المطر تسبقه رياح مبشرات –وقد يأتي بعد احتباس– فكذلك نصر الله يأتي بعد ترقب واحتباس"(٣٩).

وعلى هدى من أقوال العلماء يمكن إجمال أوجه المناسبة:

١- إنه لما ذكر آيات الله الدالة على قدرته ووحدانيته، الأمر الذي من شأنه إن تمّ تدبره أن يكون الإيمان حاصله، وكان من قوم النبي من كذب وكفر؛ فناسب أن تأتي الآية تسلية لقلب النبي، وعزاء له في أمره، فهو شفوق رحيم يود لو أنقذ

كافة الناس من العذاب يوم القيامة.

٢- إنها أتت معترضة في موضوع النعم، وما قابلها أهل الضلال من جحود، تسلية لقلب النبي ووعدا للمؤمنين، ووعيدا للكافرين، وأن وعد المؤمنين بالنصر وخذلان الكافرين إنما هو من سنن الله في خلقه.

٣- إنه لما كان إرسال الرياح مبشرات ومنذرات، فمن آمن أذاقه من رحمته ومن كفر أنزل عليه من نقمته، حيث طوى ذلك في الآية الأولى لأن سياقها تطلب ذلك، ناسب أن يبينه في فحوى الثانية.

٤- إنه لما كان السياق أصلا في نصرة أولياء الله وخذلان أعدائه، وكان الأنبياء سببا في إحياء القلوب، وتسيير مصالحهم في معادهم، كما الرياح سبب إحياء الأرض وتسيير مصالح الناس في حياتهم، تحصل من ذلك وجه المناسبة في ذلك على سبيل المشاكلة؛ فالرياح مبشرات ومنذرات، وما تأتي الرياح به قد يكون خيرا على قوم، وشرا على آخرين، كما ما يأتي الرسل به فيؤمن قوم فيكون الخير لهم في حياتهم وآخرتهم، ويكفر آخرون فيكون عليهم وبال إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة ضرورة.

٥- إنه لما ذكر الرياح والفلك التي تجري في البحر وما توحي الفلك في الذهن وتُذكِّر به من الماء وطغيانه، والفلك والغرق، وما قد تحمله الفلك من نجاة، وفي ذلك إشارة إلى غرق قوم نوح، ونجاته ومن آمن معه، وفي ذلك تحذير لكفار قريش من أن تحل بهم نقمة الله كما حلت بأولئك، وفيها إيماء لهم إن هذا النبي هو سفينة نجاة لكم، فآمنوا خير لكم، فسلامتكم منوطة بتعلقكم بعروته الوُثْقَى.

٦- إنه لما أتت هذه الآية بين آيتي الرياح وما يحمله من خير منظور، تترقبه الأنفس طمعا وتشوفا، وقد ييأس الناس عند انحباسه الذي قد يطول أو يقصر، ولكنه يأتي لا محالة، وكذلك نصر الله أنبياءه والمؤمنين، والانتقام من الكفرة المجرمين قادم لا محالة وإن أبطأ، فالحق يعلو وإن طالت جولة الباطل.

وتوضيحاً للتناسب السياقي بين الموضوع المعترض والمعترض فيه نقول: يبدأ هذا المعقد عند قوله: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا**﴾[الروم: ٤٢]، ويختتم بقوله: ﴿**إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ**﴾[الروم: ٥٣]. حيث يفتتح بتمهيد يؤسس لفكرة السير في الأرض للنظر والتفكر والاعتبار، فهذا المعنى سيلقي بظلاله على جو هذا المعقد، ثم يأتي موضوعُ توجيهِ هذا الدين الإنسانَ إلى السيرِ في الأرض، والتفكر والاعتبار يشير إلى ذلك. وما يهمنا من مكونات هذا المعقد المقاطع الثلاثة الآتية:

الأول: قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ...**﴾.

الثاني: قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا ...**﴾

الثالث: قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ...**﴾.

بدأ المقطع الأول الخطابَ بتقرير حقيقة أن الرياح بما تحمله للناس من بشرى بالخير، وما يتحقق بها لهم من مصالح هي تفضُّلٌ من الله ونعمة من نِعَمِه، وآية من آياته تستوجب الشكر، وهذه حقائق جلية ساطعة في الكون، ودليل لا يقبل الجدل على أن إرادة جلية لخالق عظيم تعمل على إقامة بدائع هذا الكون فأينما التفت المتأمّل في الكون ونواميسه، وجد قدرة الله حاضرة متجلية، لا يجحد ذلك إلا مُكابِر في الحق أو جاهل، لذلك قال الله {ومن آياته} بضمير الغائب، إذ إن الضمير يرجع حتماً إلى الله، فقدرة الله وحكمته في الكون أظهرُ من أن يُصَرَّحُ بمُجلّيها.

وأما المقطع الثاني فيتحدث عن حقيقة من نوع آخر هي سنة من سنن الله، وآية من آياته في خلقه، وهي تتطلب السير في الأرض والنظر والاعتبار، فالمقطع يخبر عن سنة من سنن الله التي نفذت على الأمم السالفة، وهي باقية إلى يوم الدين

بنصرة الحق وخذلان الباطل، فالعناصر في هذا المقطع مباينة لتلك في سابقه، ولكن يشتركان أن الزمان والمكان لا تخصيص أو تقييد لهما.

وأما المقطعُ الثالثُ فتكميلٌ للأول؛ ففيه يعود السياقُ للحديث عن نعم الله التي أودعها في الرياح، حيث المطر وما يكون من شأنه، وأثر الرياح في تكوينه، ثم ما يحصل بسببه من تحول في مشاعر الناس، فينقلب شعورهم من القنوط والإبلاس إلى البِشْر والسرور، ثم إن الذي يفعل هذا ويعلمه، لحقيق بأن يقدر على البعث والنشور، وهذه الإلفاتات تحتاج في إدراكها نظرا وتفكرا، وسيرا في الأرض بحثا طلبا للعلم.

فالمقطع الثالث يرتبط بالأول بعلاقة التكميل؛ فالأحداث متتابعة ويكمل بعضها بعضا، وأما علاقة الأول بالثاني فتتجلى في الربط بين آية الرياح وما تحمله من بشارة لقوم ونذارة للآخرين، وبين سنة نصر الأنبياء وهلاك الأمم وإبادتها؛ فالرياح كما جعلها الله رحمة لقومٍ جعلها الله سبباً لهلاك آخرين. وعلى الرغم من ظهور هذه السنة الإلهية إلا أن نفرا من الجاحدين المكذبين بالرسالات لم يلقوا لهذه الأدلة بالاً ولم يعيروها اهتماماً؛ مما أهمَّ النبي ﷺ الرحيم الشفوق، فجاء هذا المقطعُ متوسطاً بين المقطعين الآخريْنِ تسليةً للنبي ﷺ وإزالةً للضيق عنه ببيان أن الله ناصرُهُ، ومُظْهِرَ دِيْنَهُ على الدين كله. فالرياح كانت من وسائل نصر الأنبياء ودمار الكافرين بها، فلذلك كله اقتضى الحديثُ عن الرياح الحديثَ عن سنة الله في الرسل وأقوامهم، بنصر الحق وأهله، وخذلان الباطل وأهله.

المطلب الرابع: قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[فاطر: ١٠]:

<u>أولاً: توضيح وجه الاعتراض</u>:

يبدأ الموضوع المُعْتَرَض فيه بالكلام على قدرة الله على البعث والنشور بدليل إحياء الأرض بالنبات بعد موتها، وهذا دليل ملزم للعقل، فالموضوع تقرير من الله بأنه وحده القادر على إرسال الرياح بالمطر فيحيي به ما يشاء من الأرض، فتتشقق من هذه الأرض معالم الحياة، والناس يشاهدون ذلك، لكنهم غافلون عن بعثهم أنفسهم بعد الموت، فجاءت الآية تنبه الناس أن الله باعثهم بعد الموت للحساب كما يبعث في الأرض الميتة الحياة. ثم ينتقل السياق إلى موضوع يخاطب الله فيه الناس أن من أراد العزة في الدنيا والآخرة فلن يحصل على شيء منها إلا من الله، فالعزة تستقى من مصدرها الوحيد، فإنه لا عزة لمخلوق إلا من خالقه، فطلب العزة من دون الله طلب للشيء من فاقده، ومن تمام عزته أنه لا يُرْفَعُ الكلمُ الطيبُ والعملُ الصالحُ إلا إليه، فالكلم غدا طيبا، والعمل غدا صالحا لأنه قصد بهما وجه الله، وإن قُصِدَ بهما غير الله كانا بائريْن. فالموضوع إذن دعوة للناس أن يأخذو العزة من مصدرها الأوحد، ودعوة لهم إلى إخلاص النية لله في الأعمال والأقوال، وبيان أن خلوَّ العملِ من النية الصالحة يُفْقِده العزة؛ فالفكرة تدور حول صفة العزة لله تعالى، وأنه هو الذي يعز ويذل.

ثم يرجع السياق للحديث عن آيات الله الدالة على عظيم قدرته وجليل نعمته، حيث الكلام عن آيات الأنفس بعد أن تحدث في السابق عن آيات الكون، فمن الخلق من التراب إلى النطفة إلى آخر ذلك من مراحلٍ في خلق الإنسان، وذلك يدل على قدرة الله وعلمه وإرادته، فهذا الموضوع تكميل للموضوع الأول، والفكرة في الموضعين واحدة حيث آيات الله الدالة على قدرته وإرادته وأحاطة علمه، فالموضعان يشكلان موضوعا واحدا، وأما الموضوع المتوسِّط فإنه معترضٌ في سياق موضوع قرآني واحد. وقد أشار إلى هذا الاعتراض البقاعي حيث رد العطف في قوله: **﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ...﴾** إلى قوله: **﴿وَاللَّهُ**

الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ ...﴾ وما عطف عليه. لبيان أن المقطع الثالث متصل بالأول بالعطف، وما بينهما منفصل نحويا وموضوعيا، فقال: "مبيناً لبعض آيات الأنفس عاطفاً على ما عطف عليه **﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾** الذي هو من آيات الآفاق"(٤٠)، ويؤيد ذلك ما قاله ابن عاشور إذ يقول: "هَذَا عَوْدٌ إِلَى سَوْقِ دَلَائِلِ الْوَحْدَانِيَّةِ بِدَلَالَةٍ عَلَيْهَا مِنْ أَنْفُسِ النَّاسِ بَعْدَ أَنْ قُدِّمَ لَهُمْ مَا هُوَ مِنْ دَلَالَةِ الْآفَاقِ بِقَوْلِهِ: **﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾**"(٤١). وممّن أشار إلى ذلك أيضا محمد عزت دروزة حيث يقول: "وقد تخلل الآيات التي قررت ما شرحناه تقريرات متصلة بالدعوة وأهدافها، ومحتوية تقريعات وإنذارات للكفار كنتيجة لما هدفت إليه الآيات"(٤٢).

ثانياً: بيان أوجه التناسب بين الآيات المعترضة وبين سياقها:

تنوعت آراءُ المفسرين في بيان أوجه التناسب بين الآية المعترضة محل الدرس والموضوع المعترض فيه وهذا عرض لآراء بعضهم:

رأى الرازي أن وجه الربط بين الموضوع المعترض فيه وهذه الآية أن الذي كان حائلا بين الإيمان بالبعث وما برهن عليه من الآيات الدالة إنما كان اعتزاز المشركين بأصنامهم، وأن أنفسهم المستسلمة للضلال تأبى الانقياد للنبي الأكرم، وما جاء به من الحق؛ فبين لهم الله أن العزة لا تطلب ولا تمنح إلا من الله العزيز الحكيم، فقال الرازي: "لَمَّا بَيَّنَ بُرْهَانَ الْإِيمَانِ إِشَارَةً إِلَى مَا كَانَ يَمْنَعُ الْكُفَّارَ مِنْهُ وَهُوَ الْعِزَّةُ الظَّاهِرَةُ الَّتِي كَانُوا يَتَوَهَّمُونَهَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ مَا كَانُوا فِي طَاعَةِ أَحَدٍ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَنْ يَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ، فَكَانُوا يَنْحِتُونَ الْأَصْنَامَ وَكَانُوا يَقُولُونَ إِنَّ هَذِهِ آلِهَتُنَا، ثُمَّ إِنَّهُمْ كَانُوا يَنْقُلُونَهَا مَعَ أَنْفُسِهِمْ وَأَيَّةُ عِزَّةٍ فَوْقَ الْمَعِيَّةِ مَعَ الْمَعْبُودِ فَهُمْ كَانُوا يَطْلُبُونَ الْعِزَّةَ وَهِيَ عَدَمُ التَّذَلُّلِ لِلرَّسُولِ وَتَرْكُ الِاتِّبَاعِ لَهُ، فَقَالَ إِنْ كُنْتُمْ تَطْلُبُونَ بِهَذَا الْكُفْرِ الْعِزَّةَ فِي الْحَقِيقَةِ، فَهِيَ كُلُّهَا لِلَّهِ وَمَنْ يَتَذَلَّلُ لَهُ فَهُوَ الْعَزِيزُ، وَمَنْ يَتَعَزَّزُ عَلَيْهِ فَهُوَ الذَّلِيلُ"(٤٣)، ثم يصل الرازي بين طرفي الموضوع المعترض فيه على وجه التكميل، فدلائل الآفاق تقرن إلى دلائل الأنفس على عادة القرآن(٤٤).

وقد جعل سيد قطب هذه الآية المعترضة انتقالا من معرض مشاهد الكون الدالة على الإيمان إلى معنى نفسي ومطلب شعوري، فيقول: "ومن مشهد الحياة النابضة في الموات ينتقل نقلة عجيبة –شيئا– إلى معنى نفسي ومطلب شعوري. ينتقل إلى معنى العزة والرفعة والمنعة والاستعلاء. ويربط هذا المعنى بالقول الطيب الذي يصعد إلى الله والعمل الصالح الذي يرفعه الله. كما يعرض الصفحة المقابلة. صفحة التدبير السيّء والمكر الخبيث، وهو يهلك ويبور... ولعل الرابط الذي يصل بين الحياة النامية في الموات، والكلمة الطيبة والعمل الصالح، هو الحياة الطيبة في هذه وفي تلك وما بينهما من صلة في طبيعة الكون والحياة"(٤٥).

وقد أبرز سعيد حوى بعض جوانب الحكمة في سرِّ ورود هذا الاعتراض بين الآيات الدالة على قدرة الله على البعث وقدرته على الإنشاء والخلق والتدبير محلقا في فضاء هذا التناسب السياقي، فيقول: "جاء قوله تعالى: **﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾** ... بين آيتين مبدوأتين بقوله تعالى: (وَاللَّهُ ... آية) دلّت على مجيء اليوم الآخر، وآية ذكّرت بابتداء خلق الإنسان من تراب، وبأن الأعمار بيد الله، وفي التذكير باليوم الآخر، وفي التذكير بابتداء خلق الإنسان من تراب، وفي التذكير بكون الأعمار بيد الله، تذكير للإنسان ألّا يطلب العزة إلا بالله ومن الله. إن حكمة مجيء الآية التي تتحدث عن العزة بين هاتين الآيتين العظيمتين هي أن تقطع من النفس البشرية عوامل طلب العزة من غير طريق الإيمان، وكل ذلك قد جاء في سياق النهي عن الاغترار بالدنيا والشيطان. ثمّ إن الكلام عن الله عزّ وجل، وعن مظاهر قدرته في أمر الدنيا والآخرة فيه تأكيد لقدرته جل شأنه على إعطاء العزة لمن يشاء"(٤٦).

ويمكن إجمال أوجه التناسب في أقوال المفسرين لهذه الآية المعترضة للسياق في موضعها من النظم القرآني بما يأتي:

١. أتت هذه الآية بيانا لحال المشركين إزاء دعوة الإيمان، وما كان منهم من اعتزاز بأصنامهم الحجرية والبشرية، تقريعا للمشركين وتأييدا وتثبيتا للطائفة المؤمنة إبان فجر الإسلام والدعوة إليه.

٢. ومن أوجه المناسبة اعتبار نوع من المماثلة الضمنية، والبرهان بقياس الأولى؛ حيث إنه لما ذكر في الآية المعترضة العزة وانقسام الناس فيها علما وعملا، ناسب تذكيرهم بوحدة أصل خلق وتركيب الكائنات الذي هو شيء ميت لا حياة فيه يمنحها لا لنبات ولا لإنسان، ذلك هو التراب، فمن يمنح التراب الميت القدرة على الحيات، أو القدرة على الإنبات، لا بد ضرورة أن يتصف بالعزة.

٣. ومن مناحي المناسبة الانتقال من مشاهد الكون الدالة على صانعه ومبدعه، والدالة على القدرة على إحياء الموات، ينتقل إلى معنى نفسي ومطلب شعوري، تأييدا لأهل الإيمان، وتخذيلا لأهل الشرك والطغيان، ذلك هو معنى العزة بالله، فلا خضوع ولا استسلام ولا هوادة في الحق ولا مداهنة في الدين، وهذا اقتضاء نفسي شعوري تطلبه تثبيت المؤمنين زمن التنزيل وإلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٤. ومن مناحي وجه المناسبة التداعي السياقي انطلاقا من فكرة الغرور وسببيه المذكورين آنفا في السورة، إذ كانت الآية المعترضة تفصيلا بعد إجمال، فغرور المشركين الناشئ عن الحياة الدنيا جعلهم يتوهمون أن العزة لكبرائهم، وأنهم بقربهم منهم إنما ينالون من تلك العزة، فجاء السياق مبينا ألا عزة إلا لله، وقد جاء هذا البيان تاليا تفصيل الصنف الثاني من الغرور الذي سببه الشيطان، فإنكار المشركين البعث برغم الأدلة الباهرة المسوقة لهذا الغرض إنما كان سببه إغرار الشيطان لهم، فالمناسبة هاهنا تستند إلى أصل تتعلـق به وهذا الأصل هو الغرور المتوطن في نفوس المشركين، مما يصرفهم عن دلائل الإيمان من آيات في الكون، أو آيات في القرآن.

٥. إن مناسبة الآية المعترضة للسياق قد تبرز من حكمة مجيئها بين آيتين عظيمتين من آيات الله في خلقه الظاهرة للعيان، وهذه الحكمة هي أن تقطع من النفس البشرية عوامل طلب العزة من غير طريق الإيمان.

ويمكن أن نوضح التناسب السياقي للآية المعترضة مع موضوعها بالآتي:

الوجه الأوّل: خُتِمَ المعقد السابق في هذه السورة بقوله تعالى: **﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾**[فاطر: ٨]، ثم أُفْتُتِحَ معقدٌ آخر بقوله تعالى: **﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾**، ممهدا لسياق آيات ودلائل قدرة الله على الإيجاد والإعادة، من خلال عرض بعض مشاهد الكون مما تقرر علمه في أنفس البشر، وغدا لوضوحه وتكريره من مسلمات أدبياتهم، ويتفرع على ذلك موضوع إحياء الأرض بعد موتها، ثم يأتي التعقيب على جهة النتيجة من المقدمات، فما ثبت من قدرة الله على سوق السحاب وإنزال المطر المحمول فيه، وإحياء الأرض الموات به، بجامع الإحياء بعد الموت، يثبتُ قدرةَ الله على البعث والنشور. ثم ينتقل السياق في ذات المعقد إلى موضوع العزة، وعلى ذات النسق؛ فهذا الموضوع مترتب على إحياء الأرض الموات، وما ثبت به من قدرة الله على أحياء الموتى من الناس ومما شاء الله، فمن كان هذا شأنه فلا بد أنه عزيز، وأن العزة له وبه، ولا تطلب إلا بين يديه، وكأنه قيل إذا كان الله قادراً على بعث الناس ونشر أجسامهم وأعمالهم، فلا يشك أحد أنه العزيز، وأنه مصدر العزة جميعا في الدنيا والآخرة، ثم يأتي موضوع تصعّد الكلم الطيب إليه ورفعه العمل الصالح، فهذه التصريفات خاصة بالله لا يشاركه فيها أحد، وهي من مقتضيات العزة، فعلاقة هذا الموضوع بما سبقه علاقة لزوم، ويقتضي أيضا وجود صنف من الناس آمنوا،

وهؤلاء هم أصحاب الكلم الطيب، وأصحاب العمل الصالح، إذ بإيمانهم وإخلاص نيتهم قبل الله أقوالهم وأفعالهم، وبذلك يُصِيبُوا من العزة ما شاء الله لهم، ويتحرك السياق بعد إلى صنف من غير المؤمنين وعلى سبيل المقابلة، فالمؤمنون يقْبل الله منهم أقوالهم وأفعالهم، فناسب ذكر الصنف الآخر، فالمكر السيئ مقابل الكلم الطيب والعمل الصالح، والبوار والخسران مقابل تطييب الكلم ورفع العمل، والعذاب الشديد مقابل النعيم المترتب على قبول الله تعالى أعمال أصحاب القبول، والذلة مقابل العزة.

الوجه الثاني: لمَّا تقدم الدليل العقلي، حيث ثبوت القدرة على البعث والنشور بثبوت القدرة على إحياء الأرض الموات، ودلالة ذلك على ثبوت العزة لله لزوما، وما ترتب على ذلك من قبول الأعمال أو ردها وإبطالها، وكأنه بعد كل هذا بقي في نفس الشاكين شيء مما قد يصرفهم عن الهدى الذي كاد أن يلابسهم ويخالط عقولهم وقلوبهم، فاقتضى المقامُ تقويةَ ما سلف وتدعيمه بمزيد من الأدلة والبراهين لقطع تلبسهم بالغرور بالحياة الدنيا أو أن يقعوا –وهم في هذه الحال من التردد– في حبائل الشيطان، فلذلك أتبع الدليل، فمن دليل أحياء الأرض إلى دليل خلق الإنسان، ثم إلى البحار وأنواعها وما فيها من نعم لا تحصى، وهكذا يتدرج السياق من دليل إلى آخر بغية الإلزام فالإقناع فالتصديق فالإيمان ثم الإيقان.

ثم يعقب على المعقد بأن الملك كله لله لا شريك له، وأن ما اتخذه المشركون في كل زمان من أوثان تعبد من دون الله أو معه، لا تملك من هذا الكون شيئا، وما هي إلا من مخلوقات الله الضعيفة بل من أضعفها، فهي لله وداخلة في ملكه، وخاضعة لعزته وجبروته، ثم تختم الآيات في هذا المعقد بإلهاب نفسي يخلق في خلد صاحب السمع والبصر حالا من الصراع النفسي، فإن من أشد النكد على أصحاب الحميّة وذوي الأنفس الأبية أن يتخلى عنهم من أفنوا فيهم أعمارهم، وأهلكوا من أجلهم أنفسهم، ظنا منهم أن لهم عزة منها سيستقون، ثم تأتي الفاجعة إذ تتبرأ من عابديها الأوثان، وكان الأولى أن تتمسك بهم فقد جعلوها في مقام عال، فيالها من حسرة، ويالله من خذلان، وتأتي بعد ذلك كله النصيحة من الله، فبكل تودد يقول الله للناس: أطيعوني فيما ذكرت لكم فأنا العليم الخبير ولا ينبئك مثل خبير. فالمعقد كله سياق واحد يرتبط موضوعيا بعلاقات بينية لا تخرج به عن السياق الموضوعي للموضوع القرآني الواحد، وتتمازج في هذه العلاقات والروابط متطلبات العقل مع متطلبات المشاعر، بتساوق منسجم متناسب، بلوغا الهدف الأسنى والمقصد الأسمى من هذه السورة الكريمة.

المطلب الخامس: قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[القيامة: ١٦-١٩].

أولاً: بيان وجه الاعتراض:

هذا موضوع قرآني يتحدث عن نهي الله تعالى غير معين نصا في سياق السورة، فليس ثَمَّ مذكور في سابق الآية أو لاحقها مما يمكن أن يرجع إليه ضمير المخاطب في الفعل (تحرك) وما بعده في سلسلة الآيات المكونة لهذا الموضوع، وكذلك ضمير الغيبة المقصود تحريك اللسان به، فالضمير أيضا يحتمل عوده إلى أكثر من مرجع، فالموضوع إذن يتحدث عن شخصية مضمرة نهاه الله تعالى عن تحريك لسانه بشيء غير معين في سياق السورة، وقد علل النهي بأن التعجل بالتحريك به غير مطلوب من هذا الشخص، إذ إن جمع هذا الشيء وقرآنه ثم بيانه ليس بموكول إلا لله، وليس على هذا الشخص المقصود إلا الاتباع حال قرآن هذا الشيء.

وكان الكلام السابق لهذا الموضوع يتحدث عن أحوال يوم القيامة، من مشاهد عظيمة من برق للبصر وجمع للشمس والقمر، ذلك بعد الكلام عن الإنسان الفاجر بيوم القيامة المكذب بحصوله، إذ يسأل سؤال استبعاد قائلا: أيان يوم القيامة؟!

وعندما يعاين هذا الفاجر تلك الوقائع العظام يثوب إلى رشده، ولا فائدة من ذلك ترجى، فيسقط في يديه، وتنتابه الحسرة والندم لما فرط في جنب هذا البيان الذي أعرض عنه. ثم ينتقل السياق إلى موضوع النهي بتحريك اللسان والنهي عن العجلة. وبعد أن يتم الحديث عن النهي عن تحريك اللسان بالشيء المقصود، وبيان المأمور به حياله، يعود السياق للحديث عن مشاهد القيامة، بعد أن يقرر القرآن حقيقة متعلقة بطبع الإنسان، تلك أنه يتعلق بحكم جبلته بالعاجل من الأمور، والظاهر منها، ويذر مآلاتها وما خفي منها، وبعد هذه الحقيقة يتكلم القرآن عن أحوال الناس يوم القيامة ساعة الحساب، وما بين الناجين والهالكين من تباين، فوجوه ناضرة ناظرة إلى نعيم ربها، ووجوه مصابة بالانكسار والذلة، وذلك عود إلى ما قبل الموضوع المعترض، فالوجوه الباسرة وجوه الإنسان الجاحد، والناضرة وجوه الفرقة المقابلة، والبيئة ذاتها، والأحداث متصلة، فالحساب والإنباء بالأعمال، يتبعها بيان المصير.

وعليه فإن الموضوع المتوسط معترض في سياق موضوع قرآني واحد، إذ يبدو مقحما على السياق.

وقد أطبق جل المفسرين على أن هذه الآيات أتت معترضة في موضوع واحد، إذ نص بعضهم على الاعتراض بلفظه، وبعضهم بما يرادفه من ألفاظ، وبعضهم قد أشار إلى ذلك، وسيظهر ذلك فيما يأتي من أقوالهم.

ثانياً: أوجه الانسجام والتناسب بينها وبين الموضوع المباشر محل الاعتراض:

أكثر المفسرون من الكلام عن هذا الموضع، مبينين ما أفاضت به قرائحهم من أوجه للتناسب بين هذه الآيات وما اعترضت فيه من موضوع. وما ذكروه من أوجه للمناسبة كان عمدته أن الخطاب في الآيات المعترضة موجه للنبي ﷺ في شأن تلقيه القرآن، وهو ما يتّفق مع رواية أسباب النزول الصحيحة[٤٧]. ولكن من العلماء من خالف في هذا، فلم يلتفت إلى رواية سبب النزول؛ فجعل الخطاب للإنسان المذكور سابقا، وأن الحديث في شأن كتاب أعماله يوم الآخرة، ومنهم من جعل الخطاب للنبي ولمن يصلح له الخطاب، والموضوع في شأن يوم القيامة، وعلى ذلك تصبح الآيات سياقا واحدا، وخالية عن الاعتراض، وهذا وإن كان محتملاً إلا أن وجود سبب نزول صحيح يردّه. لذا فسنسير مع جمهور العلماء في الاعتداد بسبب النزول.

وسنذكر جملة من أقوال العلماء في الكشف عن أوجه التناسب بين الموضوع المعترض به بين ما قبله وما بعده على النحو الآتي:

بَيَّنَ الزمخشريُّ أنّ وجه الاتصال بين قوله: {لاَ تُحَرّكْ بِهِ لِسَانَكَ} وبين ذكر القيامة هو "من باب حسن التخلص من أجل التوبيخ بحب العاجلة، وترك الاهتمام بالآخرة"[٤٨].وقد أوضح الألوسي حسن التخلص فقال: "وقوله عز وجل لا تُحَرِّكْ إلخ متوسط بين حبي العاجلة: حبها الذي تضمنه {بل يريد} تلويحا، وحبها الذي آذن به {بل تحبون} تصريحا لحسن التخلص منه إلى المفاجأة والتصريح. ففي ذلك تدرج ومبالغة في التقريع والتدرج، وإن كان يحصل لو لم يؤت بقوله سبحانه لا تُحَرِّكْ إلخ في البيان أيضا إلا أنه يلزم حينئذ فوات المبالغة في التقريع، وأنه إذا لم تجز العجلة في القرآن وهو شفاء ورحمة فكيف فيما هو فجور وثبور"[٤٩].

ذكرَ الرازيُّ أوجهاً متعددةً في بيان المناسبة بين الموضعين فقال: "وَاعْلَمْ أَنَّ فِي بَيَانِ الْمُنَاسِبَةِ وُجُوهًا ويمكن تلخيص هذه الأوجه[٥٠]:

أ. أَنْ يَكُونَ الِاسْتِعْجَالُ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ، إِنَّمَا اتَّفَقَ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ إِنْزَالِ هَذِهِ الْآيَاتِ عَلَيْهِ، فَلَا جَرَمَ نُهِيَ عَنْ ذَلِكَ الِاسْتِعْجَالِ فِي هَذَا الْوَقْتِ، وَقِيلَ لَهُ: لَا تَحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ.

ب. إن الآية جاءت بعد الكلام عن حب الكافرين للدنيا وتعجلهم في طلبها، غافلين عن الآخرة وما فيها من سعادة أبدية،

فاقتضى ذلك بيان أن التعجل مذموم مطلقا حتى في أمور الدين، وحتى فيما كان من النبي في تعجله حفظ القرآن حال نزوله عليه، وفيه تقريع ومبالغة في ذم الكافر ومسلكه.

ج. إنه لما ذكر التعذر من الكافر يوم القيامة، وكان عذر النبي في تحريك لسانه أثناء تلقين جبريل القرآن إياه الحفظ ومخافة تفلت بعضه، اقتضى تذكير النبي أن يتوكل على الله في ذلك، فما كان النبي يفعله متعذرا به لا فائدة منه.

د. إنه لما كان الإنسان على نفسه بصيرة، ويعلم الكافر في قرارة نفسه قبح أفعاله بإنكاره للبعث والحساب، وكان النبي يتعجل القرآن حفظا لتبليغه لأولائك الكفرة، لا جرم أخبره الله وحالهم تلك أنه لا فائدة ترجى من ذلك، إن تعجل أم لم يتعجل.

هـ. إنه لما كان الكافر يفر من الله إلى غيره، عند قوله أين المفر، وعلى سبيل التقابل أمر الله تعالى نبيه مخالفة هذا الفعل، وإن كان في أيسر وأدق الأمور، حتى وإن كان ذلك يلمح لمحا، فلا جرم أمره الله أن يفر إلى الله في حفظه للقرآن غير معتمد على تحريك اللسان أو غير ذلك.

و. إن الخطاب في قوله: {لا تحرك به لسانك} ليس للنبي، إنما هو للإنسان حال بيان كتاب أعماله حيث ما قدم من أعمال وأخر، وكأنه يتعجل قراءته وحفظه أمل أن يجد فيه ما يجادل به عن نفسه، فلخوفه، وكثرة محتوى ذلك الكتاب يتلجلج ويضطرب، فيأتيه الخطاب أن الله بحكم وعده ووعيده، وبمقتضى عدله يمكن هذا الكافر من حفظ كتاب أعماله كاملا، ليجادل عن نفسه كيف يشاء، وإن كان جدله لن يغير من الأمر شيء، فلا يجد بعد ذلك الحفظ إلا أن يلقي ما لديه من معاذير خالية عن النفع. وقد عقّبَ القفّال على رأيه هذا فقال: فَهَذَا وَجْهٌ حَسَنٌ لَيْسَ فِي الْعَقْلِ مَا يَدْفَعُهُ وَإِنْ كَانَتِ الْآثَارُ غَيْرَ وَارِدَةٍ بِهِ"[٥١].

ويذكر أبو حيان أَنَّ الْمُنَاسِبَةَ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا قَبْلَهَا أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ مُنْكِرَ الْقِيَامَةِ وَالْبَعْثِ مُعْرِضًا عَنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَمُعْجِزَاتِهِ وَأَنَّهُ قَاصِرٌ شَهَوَاتِهِ عَلَى الْفُجُورِ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ بِمَا يَصْدُرُ مِنْهُ، ذَكَرَ حَالَ مَنْ يُثَابِرُ عَلَى تَعَلُّمِ آيَاتِ اللَّهِ وَحِفْظِهَا وَتَلَقُّفِهَا وَالنَّظَرِ فِيهَا وَعَرْضِهَا عَلَى مَنْ يُنْكِرُهَا رَجَاءَ قَبُولِهِ إِيَّاهَا، فَظَهَرَ بِذَلِكَ تَبَايُنُ مَنْ يَرْغَبُ فِي تَحْصِيلِ آيَاتِ اللَّهِ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْهَا. وَبِضِدِّهَا تَتَمَيَّزُ الْأَشْيَاءُ وَلَمَّا كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لِمُثَابَرَتِهِ عَلَى ذَلِكَ، كَانَ يُبَادِرُ لِلتَّحَفُّظِ بِتَحْرِيكِ لِسَانِهِ أَخْبَرَهُ تَعَالَى أَنَّهُ يَجْمَعُهُ لَهُ وَيُوَضِّحُهُ. ولَمَّا فَرَغَ مِنْ خِطَابِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، رَجَعَ إِلَى حَالِ الْإِنْسَانِ السَّابِقِ ذِكْرُهُ الْمُنْكِرِ الْبَعْثَ، وَأَنَّ هَمَّهُ إِنَّمَا هُوَ فِي تَحْصِيلِ حُطَامِ الدُّنْيَا الْفَانِي لَا فِي تَحْصِيلِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ، إِذْ هُوَ مُنْكِرٌ لِذَلِكَ"[٥٢].

وقد ذكر عبد الكريم الخطيب ثلاثة أوجه للمناسبة أقامها جميعا على مبدأ الحكم بدلالة الأولى، وركز فيها على مقصد دعوة المشركين للإيمان من خلال لفت أنظارهم بقوة الإيحاء النفسي والعقلي لهذا الترتيب الذي يبعد كل البعد عن ترتيب الناس لأقوالهم، وتوارد أفكارهم، فيقول الخطيب: "تبدو مناسبة هذه الآيات، للآيات التي قبلها، ثم للآيات التي بعدها– تبدو المناسبة بعيدة في ظاهر الأمر، حيث إن هذه الآيات حديث خاص إلى النبي، في شأن من شؤون تلقّيه الوحي، وما بعد هذه الآيات وما قبلها، هو عرض للمشركين والضالين في موقف الحساب والجزاء يوم القيامة، فما سرّ وضع هذه الآيات هنا؟ وما المناسبة الجامعة بينها وبين ما تقدمها، وما جاء بعدها؟ نقول والله أعلم: إن هذا الترتيب الذي جاء عليه نظم هذه الآيات، يشير إلى أكثر من دلالة، ويوميء إلى أكثر من مقصد. ويمكن إجمال ما ذكره بالآتي:

أ. إنه لما كان من صوارف المشركين عن الهدى حسدهم للنبي، لما علموه مما هو عليه من رفعة باتصاله بوحي السماء، وكانوا يتمنون ذلك دونه، ولما كان الكلام عن أحوال الكفار وموقفهم من القيامة، جاء هذا القطع للنسق إلتفاتة قاهرة لتخفف الحسد والحقد المتوطن في قلوبهم، إذ يرون أنه لا عظيم بين يدي عظمة الله، فالجميع ومنهم النبي مربوبون

مقهورون لعظمة ربهم؛ لعل ذلك يردهم إلى أن يفكروا باستقامة، وينظروا إلى هذا الدين متجردين للحق، منسلخين عن الأحقاد والعصبية.

ب. إن هذا القطع المفاجيء للنسق القرآني، في أثناء الكلام عن الآخرة وحب الناس للعاجلة بحكم فطرتهم الأولى، والنبي لم يخلُ عن تلك الفطرة، إذ كان منه تعجلٌ، وإن كان في أجلِّ الأمور وأعظمها، فإن الله وجّه نبيه هذا التوجيه بيانا أنه لما كان التعجل في أمر القرآن وتلقيه ليس بمحمود، فكيف بمن يتعجلون في أمور الدنيا فهم أولى أن يتركوا هذا الصنف من التعجل، ويلتفتوا إلى الآجلة التي هي فحوى كلام الموضوع المعترض فيه، وهي طريق السعادة؛ وهذا كله بيانٌ لإرادة الله تعالى الهداية للناس كافة.

ج. إن في هذا الترتيب القرآني دعوةً للمشركين أن يستمعوا للنبي الأكرم إلى أن ينهي كلامه، ليمنحوا أنفسهم فرصة كافية من خلالها يتفكروا فيما يلقى إليهم من ربهم بواسطة النبي، وذلك تعلما من هذا التوجيه الإلهي للنبي، فإن كان النبي مأموراً بالتروي فيما هو لا بد حافظه، فكيف بكم أيها الكافرون فأنتم أولى بالإنصات لرفع حجب قلوبكم وأبصاركم الحائلة دون أنوار الهدى"[٥٣].

ويمكن القول تجليةً للمناسبة بين الآيات: إن هذا الموضع هو ثاني موضوعات هذه السورة، إذ تناول الأول بالحديث الإنسان المنكر ليوم القيامة، وما ينتابه من فجور بسؤاله عن وقت القيامة، ثم بيان مصيره عندما يسقط بين يديه، ويعلم تلك الحقيقة الصادمة المؤلمة، ويقف معتذرا نادما حين لا ينفع ندم أو اعتذار، وكل ذلك لأنه رفض الهدى واتبع سبيل الضلال، وآثر العاجل الفاني على الآجل الباقي، ثم ينتقل السياق إلى موضوع آخر حيث ناسب الحديث عن (البعد عن الهدى المفضي إلى الهلاك)، الحديث عن الهدى المتمثل بالقرآن والرسول الذي جاء على يديه، فناسب أن ينتقل السياق إلى موضوع متعلق بطرفَيِ الهدى: القرآن والنبي، فكان الحديث عن مسألة كانت تؤرّق النبي من أمر الوحي، فأراد الله أن يرفع عن نبيه ذلك الأرق ويخفف عنه المشقة في معالجته للوحي.

ثم يأتي الموضوع اللاحق إذ اقتضى الكلام في الموضوعين المتقدمين موضوعا يجمع بين فحواهما الذي هو الهدى الذي يصل بين العاجلة والآخرة، فتكون للمنكر خيبة وندم، وللثاني نضارة ونعيم، ففي قوله {كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة} مرتكز للانتقال إلى ما ينتظر النقيضين من جزاء.

ولما كان من مقاصد هذه السورة تهذيب النفس الإنسانية التواقة في أصل جبلتها إلى الأمور العاجلة؛ لأن قلة الصبر والخوف من دنو الأجل يدفع بها إلى التمسك بالبدايات الحاضرة، وعدم الاكتراث بمآلات الأمور، وهذا توجيهٌ قرآنيٌّ يصحح منهج الحياة عند أصحاب العقول، فالأصل الالتفات إلى الأولويات لا الأوّليات، فالنتائج هي الثمرة وهي القيمة العليا المنتظرة. وعليه فالإنسان الذي لم يهذب نفسه بالإيمان، وأجراها على سجيتها، فإنها ستتعلق بعاجل الملذات والشهوات، ثم إنها ستتخذ من فكرة القيامة والحساب عدوا؛ إذ لا مصلحة لها بها، فتهيئ له نفسه أن لا منطق يحكم بصدق خبر القيامة، فتلقي النفس الرافضة للحساب المقبلة على الشهوات بظلالها على عقل هذا المغرور، فيجادل بالباطل ليدحض فكرة الخطر المحدق به إن هو سلم بهذه الحقيقة، فيتوطن في نفسه أهمال المصائر أو المآلات، وعليه يختل عنده منهج التسلسل، ويكتفي بالمقدمات من غير نظر إلى النتائج، وهذا حال الإنسان الحائر المجادل المذكور في هذه السورة، فيبين له ولمن بلغ أن القيامة حق واقع، وأنه لا مفر لأحد منها، وفيها سيُنَبَّأ كلُ إنسانٍ بما قدم وأخر، وبشهادته على نفسه، ولن يستفيد شيئا وإن قدم من معاذيره ما قدم.

فالسورة إلى هنا تتغيّى لفت النظر إلى أن الأصل بالأعمال نتائجها، والأصل في حياة الإنسان في الدنيا مآل حاله يوم القيامة، وأن أهمية الفعل تكمن في نتائجه، فإن كانت حسنة فحسن، وإن ساءت فساء، وإن كانت النتيجة بالفعل وعدمه

سيان، فتركه أولى لأن فيه إضاعة للوقت والجهد ولا طائل.

ثم ينتقل السياق إلى النبي بحسب مرجع الضمير الذي تؤيده الروايات الصحيحة، موجها إياه أن يتخلى عما جبل عليه الإنسان من حب العجلة، وأن يلتفت إلى الأهم والأجدى وهو الاتباع والتبليغ والعمل بجد على نشر الدعوى ببيان ما يوحيه إليه ربه، فالمقصد واحد وإن تغايرت الموضوعات، وأمر الله النبي بعدم تحريك اللسان لأنه لا جدوى من ذلك؛ فالله قد تكفل بحفظ القرآن في قلب النبي ﷺ فالنظر إلى النتائج بعد أن بينها الله تعالى للنبي ﷺ صححت ما كان النبي ﷺ يفعله، تقديرا منه بحكم جبلته الإنسانية، وتشديدا منه على نفسه حفظا للقرآن الموحى إليه؛ فأمره أن يهوّن على نفسه رحمة به وإشفاقا عليه، فمآل هذا الوحي أنه محفوظ لا محال، ففي ذلك تصحيح لنهج النبي ﷺ في تعامله مع تكاثر الوحي، وخشيته ﷺ أن يفلت شيء منه بحكم طبيعة البشر المفطورة على النسيان، وكذلك ما بينه الله للإنسان في ما سبق من الآيات كان من شأنه أن يصحح مسيرته ويلفت نظره إلى نتائج أفعاله لعله ينسلخ عنها، فيقوم منهجه، ويوازن بين أولوياته.

ثُمَّ تعودُ الآياتُ إلى تقرير حقيقة هذا الطبع الإنساني المركوز في أعماق الإنسان؛ فتأتي الآيات على سبيل التحبب والتلطف في الخطاب مع النبي ﷺ: **﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾**[القيامة: ٢٠، ٢١]، والعاجلة هنا ما يستعجل من أمور الدنيا، والآخرة ما يستجلب من نتائج الأعمال من شؤونها أيضا، هذا فيما يتعلق بالنبي الأكرم، وفي ذات الوقت فإن الآية تحمل زجرا للإنسان الحائر، فالآخرة المذكورة بالنسبة له تحمل على يوم القيامة الذي يَفْجُر بشأنه، ثم يرتكز السياق على كلمة الآخرة على المعنى الثاني ليعود إلى مهيع الكلام عن القيامة وأحوال الناس على اختلاف مصائرهم، وكل ذلك سيرا في ركاب مقصد السورة، لفتا للعقل إلى الموازنة بين المقدمات والنتائج، وحثا للنفس الإنسانية على العمل لوقاية نفسها من المصير المظلم، ودفعا لها للحرص على الأَوْلَى من شؤونها، ونأيا بها أن يتحكمها الغرور وتتلبسها وقيعة الشهوات.

خاتمة البحث:

توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج نبرزها فيما يأتي:

١. إن الآياتِ المعترضةَ أسلوبٌ من أساليب القرآن الكريم في طرح موضوعاته، وهي تمثّلُ ظاهرةً بارزةً في نظم النص القرآني.
٢. إن الآياتِ المعترضةَ بين الموضوع القرآني الواحد تشتملُ على مقاصد وأهداف عظيمة يتقصد الخطاب القرآني إبرازها والتنبيه عليها.
٣. إن الآياتِ المعترضةَ وموضوعَها المعترض سياق واحدٌ منسجمٌ، ويشكلان نظاما واحدا في غاية الإحكام. وفي هذا ردٌّ على المشككين والطاعنين في إعجاز القرآن الكريم.
٤. إن العلاقة التي تربط بين الآيات المعترضة وسياقها المعترض فيه تتخذ منحى الاقتضاء؛ وكأن المقام يتطلب هذا الكلام المُعْتَرِض استجابة لمقتضى حال المتلقي لهذا الخطاب.
٥. إن لهذا النسق القرآني الفريد أثراً بالغا في تنوع آراء المفسرين، الأمر الذي يثري الفكر ويعلي من فرع شجرة هذا العلم .

وتوصي الدراسةُ بتتبع هذه المواضع باستقرائها في القرآن الكريم ودراستها والكشف عن تناسبها واتساقها مع سياقاتها، والتعمق في إبراز ما تومئ إليه من أسرار.

الهوامش:

(١) من هذه الدراسات:
- الاعتراض في القرآن الكريم مواقعه ودلالاته في التفسير، رسالة ماجستير للباحث عبد الله بن عبده احمد المباركي، مقدمة في جامعة أم القرى كلية الدعوة وأصول الدين، السعودية، سنة التقديم ١٤٢٨هـ/١٤٢٩ هـ.
- دلالة الجملة الاعتراضية في القران الكريم، للباحث أحمد مرغم، رسالة دكتوراه، مقدمة في جامعة سطيف – الجزائر، قسم علوم اللغة تاريخ التقديم، ٢٠١٣م-٢٠١٤م.
- **أسلوب الاعتراض في القرآن الكريم من خلال الكشاف للزمخشري دراسة نحوية بلاغية**، الباحث رابح العربي، جامعة الجزائر، الجزائر، كلية الآداب، رسالة ماجستير، تاريخ التقديم، ٢٠٠٢م.
- ظاهرة الإقحام في التراكيب اللغوية، الدكتور خالد بن عبد الكريم بسندي، كلية الآلسن، جامعة عين شمس، ٢٠٠١م.
- **مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور**، عادل بن محمد أبو العلاء، من منشورات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ١٢٩، السنة ١٤٢٥هـ.
- **التناسب في سورة البقرة**، طارق مصطفى محمد حميدة، رسالة ماجستير، عمادة الدراسات العليا، جامعة القدس، ١٤٢٨هـ.
- **التناسب البياني في القرآن: دراسة في النظم المعنوي والصوتي**، الدكتور أحمد أبو زيد.

(٢) ينظر: الزركشي، بدر الدين، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط١، ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧ م، (١/ ٢٦٤).

(٣) محمد الطاهرُ بن عاشور، **التحرير والتنوير** الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ، (٤٦/١).

(٤) ينظر: الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، (٢٦٦/١). والسيوطي، جلال الدين، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، (١٨٧/١). و الزرقاني، محمد عبد العظيم (ت ١٣٦٧هـ)، **مناهل العرفان**، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٣، (٣٣٩/١).

(٥) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح** البخاري، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، (٤٠/٩). وينظر: السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، (٢١١/١).

(٦) ينظر: ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، (٥/ ٤٢٣-٤٢٤).

(٧) البقاعي، برهان الدين، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، (٥/١).

(٨) الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، (٣٦/١).

(٩) الشهري، نوح، **أثر السياق في النظام النحوي على كتاب (البيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري)**، ص٧٩.

(١٠) المثنى عبد الفتاح محمود، **نظرية السياق القرآني، دراسة تأصيلية دلالية نقدية**، دار وائل، الأردن، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٥.

(١١) ينظر: الربيعة، محمد، علم السياق القرآني **(مفهوم السياق عند العلماء)**، بحث منشور على الإنترنت، تاريخ النشر: ١٤٢٧/١٢/٢٩هـ-٢٠٠٧/٠١/١٨م.

(١٢) ينظر: المثنى عبد الفتاح محمود، نظرية السياق القرآني، ص١٩.

(١٣) السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، (٣٧٤/٣). وقول السيوطي (وقال بعضهم) لعله يقصد ابن حجة الحموي، (ت ٨٣٧هـ). ينظر: ابن حجة الحموي، **خزانة الأدب وغاية الأرب**، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٤م، (٣٢٩/١).

(١٤) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، (٥٣١/١).

(١٥) الخطابي، أبو سليمان، حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي (ت ٣٨٨هـ)، **بيان إعجاز القرآن مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن** – سلسلة: ذخائر العرب (١٦)، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر،

ط٣، ١٩٧٦م، ص: ٥٤).

(١٦) ينظر: السيوطي، جلال الدين، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، مصر، (٣٢٧/٢). وينظر: أبو الفتح العباسي، عبد الرحيم **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، (٢٧٠/١).

(١٧) أبو السعود العمادي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١/ ٢٣٥).

(١٨) الألوسي، شهاب الدين، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، (١/ ٥٤٨).

(١٩) سيد قطب، إبراهيم حسين الشاربي (ت ١٣٨٥هـ)، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، بيروت– القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ، (١/ ٢٣٨). وينظر: الأصفهاني، الراغب، **تفسير الراغب الأصفهاني**، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب –وآخرون، (١/ ٤٩٤). وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، (٢/ ٤٦٥). وأبو زهرة، محمد، **زهرة التفاسير**، دار الفكر العربي، (٢/ ٨٣٦). ودروزة محمد عزت، **التفسير الحديث**، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة: ١٣٨٣هـ، (٦/ ٤٥٠).

(٢٠) ينظر: الأصفهاني، الراغب، **تفسير الراغب** الأصفهاني، (١/ ٤٩٤). والرازي، فخر الدين **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ، (٦/ ٤٨٢). والألوسي، روح المعاني، (١/ ٥٤٨). وسيد قطب، **في ظلال القرآن**، (١/ ٢٣٨). والخطيب، عبد الكريم، **التفسير القرآني للقرآن**، دار الفكر العربي، القاهرة، (١/ ٢٨٥). ومحمد رشيد رضا، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، (٢/ ٣٤٥).

(٢١) البيضاوي، ناصر الدين، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، (١/ ١٤٧). وما ذكره البيضاوي استظهره أبو حيان الأندلسي في بحره: **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ط: ١٤٢٠ هـ، (٢/ ٥٤٢). والبقاعي في **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (١/ ٤٤٩).

(٢٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، (٢/ ٤٦٥).

(٢٣) نفس المصدر، (٢/ ٤٦٥، ٤٦٦). وينظر: دروزة، محمد عزت، **التفسير الحديث** (٦/ ٤٥٠).

(٢٤) ينظر: حوى، سعيد (ت ١٤٠٩هـ)، **الأساس في التفسير**، دار السلام، القاهرة، ط٦، ١٤٢٤هـ، (١/ ٥٥٨).

(٢٥) الزمخشري، أبو القاسم، ال**كشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، (٢/ ٦٧٩).

(٢٦) الرازي، **مفاتيح الغيب**، (٢١/ ٤٧١، ٤٧٢). وينظر: البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، (٣/ ٢٨٤). وأبو حيان، **البحر المحيط في التفسير**، ٧/ ١٨٩). والبقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (٤/ ٤٧٥). و الألوسي، **روح المعاني**، (٨/ ٢٧٨).

(٢٧) البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، (٣/ ٢٨٤).

(٢٨) البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (٤/ ٤٧٧).

(٢٩) الخطيب، عبد الكريم، **التفسير القرآني للقرآن**، (٨/ ٦٣١).

(٣٠) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، (١٥/ ٣٤٠).

(٣١) أبو حيان، **البحر المحيط في التفسير**، (٨/ ٣٩٨).

(٣٢) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، (٧/ ٦٤).

(٣٣) ينظر: الألوسي، **روح المعاني**، (١١/ ٥٢).

(٣٤) الرازي، **مفاتيح الغيب**، (٢٥/ ١٠٨).

(٣٥) ينظر: أبو حيان، **البحر المحيط في التفسير**، (٨/ ٣٩٨). والألوسي، **روح المعاني**، (١١/ ٥٢). وسيد قطب، **في ظلال القرآن**، (٥/ ٢٧٧٤). والخطيب، عبد الكريم، **التفسير القرآني للقرآن** (١١/ ٥٣٦، ٥٣٧).

(٣٦) ينظر: البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (٥/ ٦٣٦).

(٣٧) البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (٥/ ٦٣٨).

(٣٨) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب** الكريم، (٧/ ٦٤). وينظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، (٢١/ ١٩).

(٣٩) حوى، سعيد، **الأساس في التفسير**، (٨/ ٤٢٩٠).

(٤٠) البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (٦/ ٢٠٩).

(٤١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، (٢٢/ ٢٧٥).

(٤٢) دروزة، محمد عزت، **التفسير الحديث**، (٣/ ١١٣). وينظر: حوى، سعيد، **الأساس في التفسير**، (٨/ ٤٥٧٧).

(٤٣) الرازي، مفاتيح الغيب، (٢٦/ ٢٢٥).

(٤٤) ينظر: نفس المصدر، (٢٦/ ٢٢٧). والبقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (٦/ ٢٠٧، ٢٠٨). وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، (٢٢/ ٢٦٩).

(٤٥) سيد قطب، في **ظلال القرآن**، (٥/ ٢٩٣٠).

(٤٦) حوى، سعيد، **الأساس في التفسير**، (٨/ ٤٥٧٧).

(٤٧) أخرج البخاري في الصحيح بإسناده عن سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾** قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ – فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَنَا أُحَرِّكُهُمَا لَكُمْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَرِّكُهُمَا، وَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا أُحَرِّكُهُمَا كَمَا رَأَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يُحَرِّكُهُمَا، فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ – فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: **﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾** قَالَ: جَمْعُهُ لَكَ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأَهُ: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} قَالَ: فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ: {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَرَأَهُ. البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (ت ٢٥٦هـ)، **الجامع الصحيح، حسب ترقيم فتح الباري**، دار الشعب، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م، كتاب بدء الوحي، (١/ ٤). وينظر: نفس المصدر، ، كتاب التفسير، باب وَقَوْلُهُ: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، (٦/ ٢٠٢).

(٤٨) الزمخشري، **الكشاف**، (٤/ ٦٦٣).

(٤٩) الألوسي، **روح المعاني**، (١٥/ ١٥٨).

(٥٠) الرازي، **مفاتيح الغيب**، (٣٠/ ٧٢٦، ٧٢٧). وينظر: البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (٨/ ٢٥١). وسيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٧٦٧).

(٥١) الرازي، مفاتيح الغيب، (٣٠/ ٧٢٧). وينظر: الألوسي، **روح المعاني**، (١٥/ ١٥٩، ١٦٠).

(٥٢) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، (١٠/ ٣٥٠).

(٥٣) الخطيب، عبد الكريم، **التفسير القرآني للقرآن**، (١٥/ ١٣١٩–١٣٢١).